ستيفنسون

المختطف

الجزء الثاني



ترجمة: مجيد ياسين

المختطف

الجزء الثاني

ستيفنسون

ترجمة: مجيد ياسين

المختطف

الفصل السابع عشر
(موت الثعلب الاحمر)



في اليوم التالي أخذني المستر هندرلاند الى رجل يملك قارب صيد كان مقرراً أن يعبر به بحيرة لين الى آبن ، وفرض عليه أن ينقلني ، لأنه كان واحداً من أتباعه . وبهذا وفرت على نفسي سفراً طويلاً ونفقات ركوب عبارتين .

كان الوقت ضحى حين انطلقنا ، وكان يوماً غائماً قاتماً لا يرى فيه من الشمس الا بصيص . والبحر عميق جداً في تلك البقعة لاتعكر سطحه الهادىء أية أمواج ، حتى أني لم أصدق أنه بحر الا بعد أن ذقت ماءه المالح . وكانت الجبال على الجانبين شاهقة وعرة جرداء قاتمة اللون كئيبة الشكل في ظل الغيوم ، تزينها أشرطة فضية ناتجة عن انعكاس ضوء الشمس على المياه المحيطة . وكم عجبت

لاهتمام ناس مثل آلن بمثل هذه الأرض المجدبة الوعرة أمر واحد لابد من ذكره . بعد تحركنا بوقت قليل أطلت الشمس على رهط من أشكال قرمزية اللون تتحرك على شاطىء البحيرة باتجاه الشمال بدا منظرها أقرب الى السترات الحمر وكانت تلمع بين حين وآخر ومضات كأنها ناتجة من انعكاس ضوء الشمس عن الحراب اللامعة .

سألت صاحب الزورق عن ذلك المنظر فقال إنهم على الأرجح بعض الجنود ذوي السترات الحمر قادمين من (قلعة وليام) الى آپن لشن حملة على فلاحي البلد الفقراء .

شعرت بالحزن لهذا المنظر . وسواء كان حزني بسبب خوفي على آلن أو لهاجس خوف في نفسي ، فقد كرهت رؤية جند الملك جورج ، رغم أني لم أرهم سوى مرة واحدة من قبل .

أخيراً وصلنا الى مدخل بحيرة ليڤن فسألت الصياد أن ينزلني الى اليابسة . كان الرجل (وهو إنسان شريف يهمه أن يفي بوعده للمبشر) يود أن يوصلني الى بالاكولش ، ولما كان هذا يبعدني كثيراً عن المكان الذي أقصده سراً فقد أصررت على طلبي ، فاضطر الرجل أخيراً إلى إنزالي عند غابة لترمور (أو لترڤور ـ فقد سمعت الاسم يلفظ بالطريقتين) في أرض آپن .

كانت تلك غابة من أشجار الغرب تغطي سفح جبل شديد الانحدار يطل على البحيرة وتتخللها فجوات ومنخفضات عديدة تكسوها نباتات السرخس . ويشقها طريق ودرب خيول شمالاً وجنوباً ، في جانبه نبع ماء . جلست هناك فأكلت قليلاً من خبز الدخن (أو الشوفان) ، الذي أعطانيه المستر هندرلاند ، ورحت أفكر في حالي .

لم أعبأ بمضايقة أسراب الذباب قدر ما أزعجتني أفكاري ومخاوفي : ماذا أفعل ؟ لماذا جئت لأربط مصيري بخارج على القانون

ويحتمل أن يكون قاتلاً ، مثل آلن ؟

ولماذا لا أتصرف كرجل عاقل وأعود أدراجي الى بلدي في الجنوب ؟

وماذا سيظنني المستر كامبل أو حتى المستر هندرلاند إذا علما بحماقتي وطيشي ؟ تلك هي الشكوك والمخاوف التي أخذت تشدد الخناق علي اكثر من ذي قبل .

وبينما أنا جالس أتأمل في هذه الأمور ، اذا بأصوات رجال وخيول تأتي من داخل الغابة . وسرعان مارأيت عند منعطف الطريق أربعة مسافرين قادمين . كان الدرب في تلك البقعة ضيقاً وعراً بحيث ترجل المسافرون عن خيولهم وصاروا يجرونها من أعنتها ويعبرون واحداً تلو الآخر .

يتقدمهم سيد ضخم أحمر الشعر ذو وجه متورد مهيب ، جاعلاً من قبعته مروحة يطرد بها الحر . يليه رجل يرتدي بذلة سوداء سابغة وباروكة شعر أبيض ، قدرت من هيئته أنه محام . الثالث خادم . فقد كان لابساً طرطاناً يدل على أن سيده ينتمي الى عائلة بارزة من سكان المرتفعات . وكان واضحاً أن الرجل إما متمرد خارج على القانون أو من أنصار الحكومة ، وذلك لأن إرتداء الطرطان كان ممنوعاً بحكم القانون . لو كنت على معرفة بهذه الأمور لكنت اكتشفت في الحال أن الطرطان يحمل الوان آرجيل (أو آل كامبل) . وكان هذا الخادم يحمل على حصانه خرجاً كبيراً وكيساً مليئاً بالليمون (ليعصره مع شراب البنتش) لسيده ، كما هي العادة بالنسبة للوجهاء من المسافرين في ذلك الجزء من البلاد .

أما الرابع الذي جاء في أعقابهم ، فقد رأيت أمثاله من قبل وعرفت في الحال أنه مساعد الشريف .

ما أن رأيت هؤلاء قادمين حتى عزمت (لا أدري لماذا) على المضي في مغامرتي . فما أن اقترب أولهم حتى نهضت من مكاني وسألته

عن الطريق الى (أوكارن) .. فتوقف الرجل ونظر الي متأملاً بشيء من الانزعاج ثم التفت الى المحامي وقال :

ـ منغو .. ناس كثيرون يعتبرون هذا أشد شؤماً من نعيق غرابين . أنا في طريقي الى (ديورر) لإنجاز العمل الذي تعرفه ، وهذا الفتى يخرج لي من بين عيدان السرخس ليسألني إن كنت في طريقي الى أوكارن .

فقال الآخر :

ـ هذا مزاح سيء ياغلينر .

كان الاثنان قد اقتربا مني كثيراً ووقفا يحدقان بي بينما وقف الاثنان الآخران على مبعدة ينتظران . سألني [كولن روي كامبل أو غلينر] ، الرجل الذي يسمونه «الثعلب الأحمر» :

ـ وعمن تبحث في أوكارن ؟

قلت :

ـ عن الرجل الذي يعيش هناك .

فيقول غلينر باهتمام :

ـ جيمس أوف غلينز . أتعتقد أنه يجمع أنصاره ؟

فيقول المحامي :

ـ مهما يكن الأمر فالأفضل أن نبقى حيث نحن ونترك المهمة للجنود .

فقلت :

ـ إذا كنتم خائفين مني ، فأنا لست من أنصاره ولا من أنصاركم ، بل أحد رعايا الملك جورج الشرفاء لا أدين بشيء لأحد ولاأخاف أحداً .

فيقول وكيل الملك :

ـ يالله ! نعم القول . لكني أريد أن أتجرأ قليلاً وأسأل : ماذا يفعل هذا الرجل الشريف هنا بعيداً عن بلده ؟ ولماذا جاء يبحث عن أخ

أردزهيل ؟ إذن فاعلم أني أنا صاحب السلطة هنا . أنا وكيل الملك على عدد من هذه المقاطعات وتحت قيادتي إثنا عشر فصيلاً من الجند .

قلت بشيء من الغيظ :

ـ سمعت الناس هنا وهناك يقولون إنك رجل صعب في تعامله .

ظل ينظر الي ، وهو بين الشك واليقين ، وقال أخيراً :

ـ حسناً . لسانك جريء ، غير أني لا أكره الصراحة . لو أنك سألتني عن الطريق الى باب جيمس ستيوارت في غير هذا اليوم لكنت دللتك عليه وودعتك . إنما اليوم ـ ها يامنغو ؟ ـ ملتفتاً الى المحامي ثانية ـ لكن ما أن التفت حتى قدح زناد وثارت طلقة بندقية من أعلى التل ، ومع صوت الإطلاقة خر غلينر صريعاً ، صارخاً : «آه ، قتلت !» عدة مرات .

رفعه المحامي واحاطه بذراعيه ، فيما تمسك الخادم بيديه ونقل الرجل الجريح نظراته المذعورة من واحد الى آخر وقال بصوت غلبت عليه حشرجة الموت :

ـ حافظوا على حياتكم . أنا مت .

وحاول فتح سترته كأنه يريد رؤية الجرح ، لكن أصابعه تراخت وانزلقت عن أزرار السترة وأطلق زفرة قوية وانحدر رأسه على كتفه وفارق الحياة .

لم يتفوه المحامي بكلمة واحدة ، الا أن وجهه كان حاداً كالريشة أبيض كوجه الميت . وانفجر الخادم في موجة صراخ وبكاء ، مثل الأطفال ، فيما وقفت أنا أحدق فيهم مرعوباً . وكان مساعد الشريف قد أسرع عائداً ليستحث الجنود على المجيء بسرعة .

أخيراً مدد المحامي القتيل على الدرب ونهض متثاقلاً . أعتقد أن هذه الحركة هي التي أخرجتني من ذهولي . فما كاد أن ينتصب واقفاً حتى انطلقت أتسلق التل صائحاً : «القاتل ! القاتل !» .

كانت الدقائق تمر بسرعة . لكن ما أن وصلت الى أول مرتفع يمكنني منه رؤية سفح الجبل حتى رأيت القاتل الهارب غير بعيد . كان عملاقاً يرتدي معطفاً أسود ذا أزرار معدنية ويحمل بندقية صيد طويلة . صحت :

– هاهو ! رأيته !

عندها التفت القاتل ليلقي نظرة سريعة الى الوراء وبدأ يركض . وماهي الا ثوان حتى توارى بين أشجار الغرب ، ليظهر ثانية في أعلى التل حيث شاهدته يتسلق السفح الشديد الانحدار بخفة القرد لينعطف وراء صخرة ويختفي تماماً .

كنت طوال هذه الفترة أركض صعوداً ، قاطعاً مسافة غير قليلة حين سمعت صوتاً يصيح طالباً مني الوقوف .

كنت في تلك اللحظة عند طرف الغابة العلوي . وعندما توقفت والتفتُّ رأيت سفح التل المكشوف تحتي والمحامي ومساعد الشريف واقفين في الأسفل يصيحان ويشيران الي بالعودة ، بينما بدأ الجنود ذوو السترات الحمر يخرجون من بين الادغال الخلفية واحداً اثر واحد حاملين الغدارات . فصحت فيهما :

– علام أرجع ؟ تعالا أنتما .

فصاح المحامي :

– عشرة باونات لمن يأتيني بهذا الولد . هو شريك في الجريمة . أوقفوه هنا ليشاغلنا بالحديث .

حين سمعت هذه الكلمات (التي كان المحامي يخاطب بها الجنود) ، وجف قلبي وتملكني رعب لاعهد لي به من قبل . أن أواجه خطراً يهدد حياتي فأمر غير جديد علي ، لكن أن أتعرض لخطر على حياتي وسمعتي معاً فذلك أمر آخر تماماً .

يضاف الى ذلك أن المسألة حدثت فجأة مثل رعد في سماء صافية أذهلت وحرت في أمري . وإذا بي اسمع صوتاً قريباً مني يهتف

بي :

- توار وراء الاشجار هنا .

والحق أني اطعت وان كنت لا أكاد أدري ما أفعل . وما أن فعلت ذلك حتى سمعت صوت اطلاق النار والرصاصات وهي تئز بين جذوع الأشجار .

وفي الحال رأيت بين تلافيف الشجر آلن بريك واقفاً حاملاً بيده صنارة لصيد السمك . لم يحيني ، فالوقت لم يكن يتسع للمجاملات . كل ماقاله : «تعال!» وانطلق يركض على امتداد سفح الجبل صوب مدينة (بالاكولش) . وكان علي أن أتبعه كالخروف .

رحنا نركض بين أشجار الصفصاف متسترين حيناً وراء الصخور الواطئة ، زاحفين حيناً آخر بين الأحراش كنا نركض بسرعة قاتلة حتى شعرت بأن قلبي يكاد أن ينفجر بين ضلوعي ولم أجد الوقت لالتقاط الأنفاس أو الكلام . كل الذي أذكره أن آلن كان ينتصب بقامته بين حين وآخر ويتطلع الى الوراء وأنه كلما فعل ذلك صدرت عن الجنود البعيدين ضجة وصياح .

بعد ربع ساعة توقف آلن وانبطح متمدداً على الحشائش والتفت الي قائلاً :

- والآن ، اسمعني بجد . أفعل كما أفعل لتنجو بجلدك .

عدنا عبر سفح الجبل بنفس السرعة ومن نفس الطريق الذي جئنا منه ، إنما بمنتهى الحذر . وربما كنا صعدنا قليلاً الى الاعلىٰ . وصل آلن أخيراً الى غابة ليترمور العليا ، حيث وجدته أول الأمر فانطرح أرضاً دافناً وجهه بالحشائش وصار يلهث كالكلب .

كان الاعياء قد بلغ مني حداً جعل ساقيَّ لاتقويان على حملي ورأسي يدور ولساني يتدلى من فمي بفعل الحر والجفاف حتى أني انطرحت بجانب آلن مثل الميت .

الفصل الثامن عشر

(حديث مع آلن في غابة ليترمور)



التقط آلن أنفاسه واستعاد هدوءه قبلي ، فنهض ومضىٰ الى حافة الغابة مستطلعاً ثم عاد وجلس . قال :

ـ حسناً ، رؤيتك كانت المفاجأة الأكبر ياديڤيد .

لم أقل شيئاً ولم أفعل سوى أن أرفع رأسي عن الأرض .

لقد شاهدت جريمة قتل ، ورأيت سيداً عظيماً متورد الوجه طافحاً بالحيوية يفارق الحياة في لحظة . كانت نفسي نهباً لشعورين : الرثاء الشديد للرجل والقلق لأن الأمر يعنيني بدرجة ما . فهاهو الرجل الذي يكرهه آلن يقتل ، وها هو آلن يتسلل راكضاً بين الاشجـار هربـاً من الجنود . وسواء كان هو اليد التي اطلقت النار أو العقل المدبر للجريمة ، فإن ذلك لايعني شيئاً .

إنما المشكلة هي أن صديقي الوحيد في تلك الأرض النـائية متهم بجريمة قتل لاخلاص منها .

تعلقت به مرعوباً . لم أقدر على النظر الى وجهه ، وشعرت لحظتها بأني كنت أفضل البقاء وحيداً تحت المطر في تلك الجزيرة الباردة على وجودي في غابة دافئة بصحبة قاتل .

سألني :

ـ مازلت مرهقاً ؟

أجبت ووجهي مدفون في أوراق السرخس :

ـ كلا . لا ، لست مرهقاً الآن ويمكنني ان اتكلم .

وأضفت :

ـ يجب أن نفترق . لقد أحببتك كثيراً ياآلن . لكن طرقك ليست طرقي ولايرضاها الله . باختصار :

يجب أن نفترق .

فقال آلن برصانة شديدة :

ـ أنا لن أفترق عنك دون سبب . إن كنت تعرف ما يسيء الى سمعتي فأقل ما أطلبه منك باسم معرفتنا القديمة أن تخبرني به . أما إذا كان كل مايدفعك الى هذا القول هو النفور من مجتمعي فالأحرى بي أن أعتبره إهانة .

قلت :

ـ ما معنىٰ هذا ياآلن ؟ أنت تعرف جيداً أن رجل آل كامبل مضرج بدمائه على قارعة الطريق .

سكت قليلاً ثم قال :

ـ هل سمعت بحكاية الرجل و(الناس الطيبين) ؟

ويقصد بهم أفراد الجن .

قلت :

ـ لا ، ولا أريد سماعها .

فيقول آلن :

- عن إذنك يامستر بالفور ، سأرويها لك . ولا بد . الرجل الذي لابد لك أن تعرفه قذفت به الامواج الى صخرة في عرض البحر اعتاد (الناس الطيبون) المجيء اليها للإستراحة في طريقهم الى إيرلنده . يطلق على هذه الصخرة اسم (سكيريڤور) ، وهي ليست بعيدة عن المكان الذي غرقت فيه سفينتنا . طيب . يبدو أن الرجل بكى بمرارة متمنياً أن يرى طفله الصغير قبل أن يموت ! حتى أن ملك (الناس الطيبين) عطف عليه في نهاية الأمر فأرسل أحد أفراد الجن المجنحين ليحمل الطفل في سلة ويأتي به ليضعه بجانب أبيه وهو نائم . فلما أفاق الرجل وجد الى جانبه سلة فيها شيء يتحرك . طيب . يبدو أن الرجل واحد من أولئك السادة الذين يتوجسون الشر في كل شيء .

فإذا به يغرس خنجره في السلة قبل أن يرى مافيها فمات الطفل في اللحظة . أنا أفكر مع نفسي ، يامستر بالفور ، بأنك تشبه ذلك الرجل كثيراً . فنهضت جالساً وصحت :

- تعني أن لايد لك فيها ؟

فقال آلن :

- سأقول لك ، يامستر بالفور أوف شوز ، أولاً كصديق يحكي لصديقه ، لو أني أردت قتل سيد فما كنت لأفعل هذا في بلدي حتى لاأجلب المتاعب الى أبناء قومي وماكنت لأمضي الى هذه الغابة مجرداً من السيف والبندقية لا أحمل سوى صنارة لصيد السمك .

قلت :

- حسناً ، هذا صحيح !

وتابع آلن كلامه ، وهو يسحب خنجره ويضع يده عليه بحركة معينة :

- أقسم بهذا الحديد المقدس بأني لم أشارك أو أنفذ أو أفكر بها قط .

فهتفت ، ماداً يدي له ، فلم ينتبه اليها على مايبدو :

ـ حمداً لله على ذلك .

قال :

ـ أمامنا متاعب كبيرة من آل كامبل . هم ليسوا قليلين أدري هذا !

قلت :

ـ على الأقل لايمكنك أن تلومني بحق ، لأنك تعرف جيداً ماقلته لي في السفينة . لكن الباعث على الجريمة وطريقة ارتكابها مختلفان ، وأشكر الله على ذلك مرة ثانية . قد يوسوس الشيطان لنا كلنا ، لكن قتل انسان عمداً ياآلن !

وتوقف لساني عن الكلام لحظة ، ثم أضفت :

ـ وهل تعرف من الفاعل ؟ أتعرف الرجل ذا المعطف الأسود ؟

فأجاب آلن بمكر :

ـ ماعندي فكرة واضحة عن معطفه ، لكن يخيل لي أنه أزرق .

فقلت :

ـ أزرق أو أسود .. المهم هل عرفته ؟

فيقول آلن :

ـ لاأستطيع الجزم . من غريب المصادفات أنه لحظة مر بالقرب مني كنت منهمكاً بربط شريط حذائي .

فصرخت ، وأنا بين الغضب والسخرية من مراوغته :

ـ أتستطيع القسم بأنك لاتعرفه ياآلن ؟

فيرد علي قائلاً :

ـ ليس الآن ، لكن أنا معروف بشدة النسيان ياديفيد .

فقلت :

ـ ومع ذلك فثمة شيء رأيته أنا بوضوح : هو أنك لفت الأنظار الينا ـ أنت وأنا ـ لتجعل الجنود يطاردوننا .

فقال آلن :

- هذا جائز الى حد كبير . وهذا مايجب أن يفعله أي سيد . أنت وأنا بريئان من تلك القضية .

فصحت :

- المنطق الأفضل ، مادمنا متهمين زوراً ، يقتضي بأن نبرىء ذمتنا . البريء لاخوف عليه .

فقال :

- عجباً ياديڤيد . صحيح أن البريء يملك دائماً فرصة النجاة أمام المحكمة ، لكني أعتقد بأن أفضل مكان للولد الذي أطلق الرصاصة هو الأحراش . على الذين لم يدنسوا أيديهم بأية آثام صغيرة أن يهتموا بأمر أولئك الذين دنسوا أيديهم . تلك هي المسيحية الحقة . فلو كان العكس وكان الولد الذي أطلق النار ، والذي لم استطع رؤيته بوضوح ، بمكاننا ونحن بمكانه (وهذا جائز جداً) لكنا سنشكره عظيم الشكر لو كان حول أنظارالجند عنا .

عندما وصل الى هذه النقطة يأست منه . لكنه بدا لي من البراءة والإيمان الواضح العميق بما يقول ومن الاستعداد للتضحية في سبيل الواجب ماجعلني أصمت . وتذكرت كلمات المستر هندرلاند : من أننا يمكن أن نتعلم درساً من هؤلاء الجبليين المتوحشين . حسناً ، ها أنذا أتعلم درسي. إن كل قيم آلن الاخلاقية بالمقلوب ، لكنه مستعد للتضحية بحياته في سبيلها ، كما هي .

قلت :

- آلن . لا أقول إن هذه هي المسيحية الحقة كما أعرفها ، لكن عملك طيب بما فيه الكفاية ، وها أنا أمد لك يدي مرة ثانية .

فمد الي يديه الاثنتين قائلاً إن لي سحراً عليه بالتأكيد لأنه يغفر لي أي شيء ، ثم تحدث بوقار شديد فقال إن وقتنا ضيق وعلينا أن نهرب من المنطقة كلانا - هو لأنه فار من الجيش وسيقلبون إقليم آبن رأساً على عقب بحثاً عنه . وأنا لأني مشترك في الجريمة حقاً .

قلت له راغباً في إعطائه درساً صغيراً :

ـ آه ! أنا لا أخشىٰ العدالة في بلدي فقال :

ـ كأن هذا هو بلدك ، أو كأنك تحاكم هنا في بلد آل ستيوارت ! فقلت :

ـ كلها سكوتلانده .

قال آلن :

ـ أنت تحيرني أحياناً يارجل . هذا الذي قتل تواً واحد من آل كامبل . حسناً ، المحاكمة ستجري في (إنفرارا) مقر آل كامبل الرئيسي ، مع خمسة عشر واحداً منهم يحتلون مقاعد المحلفين(*) وكبير العشيرة (أي الدوق) يتربع منفوشاً مثل الديك على منصة القضاء . عدالة ياديفيد ؟ العدالة في العالم كله هي تلك التي تشبه وجود جثة غلينر على قارعة الطريق .

أخافتني هذه الفكرة قليلاً . وأعترف بأنها كانت ستخيفني للغاية لو أني عرفت كم كانت صحيحة تنبؤات آلن . إنما كان آلن مبالغاً في نقطة واحدة . فليس على مقاعد المحلفين سوى أحد عشر من آل كامبل . أما الأربعة الآخرون فمن أتباع الدوق ممن يأتمرون بأمره . قلت ، في حينه ، إنه متحامل على دوق آرجيل الذي هو (رغم كونه من أنصار الملك) نبيل عاقل ونزيه . فقال آلن :

ـ رويدك ! الرجل من أنصار الملك . لاشك في ذلك ، لكني لا أنكر أنه زعيم جيد لأبناء عشيرته . ماذا ستقول العشيرة اذا رأت واحداً من آل كامبل يقتل ولا أحد يشنق والمدعي العام هو زعيمهم نفسه ؟

ـ ويقول .

ـ لكني لاحظت أنكم أبناء الجنوب لاتملكون فكرة واضحة عما هو صواب وماهو خطأ .

عندها ضحكت عالياً . ولدهشتي رأيت آلن يشاركني فيضحك بإبتهاج شديد لايقل عني . ويقول :

ـ لا ، لا ، نحن في الأراضي المرتفعة ياديڤيد . وعندما أقول لك «أهرب» فثق بكلامي وأهرب . لاريب ان الاختباء ففي الأحراش ومعاناة الجوع أمر صعب جداً ، لكنه ليس أصعب من الأغلال في سجن ذوي السترات الحمر .

سألته الى أين نهرب فقال «الى الأراضي الواطئة» فوافقته لأني كنت متلهفاً الى العودة وتصفية الحساب مع عمي . واكد لي آلن أن العدالة مفقودة حتى خشيت أن يكون مصيباً . كنت أكره الموت بحبل المشنقة وارتسمت صورة تلك الآلة الكريهة في ذهني بوضوح غير اعتيادي (كنت رأيت الصورة مرة مطبوعة في أعلىٰ قصيدة غنائية شعبية) فجعلتني اكره رؤية المحاكم .

قلت :

ـ سأغامر ياآلن . سأذهب معك .

فقال آلن :

ـ لكن حذار ، فالمسألة ليست هينة . ستواجه المشقات وتنام في العراء وتتضور جوعاً مرات عديدة . سيكون فراشك الصخور والاحراش وحياتك حياة الغزال المطارد ، وتنام ويدك على سلاحك . أجل يارجل ستضطر الى السير على قدمين متورمتين والا وقعنا في قبضتهم ! أقول لك هذا من البداية لأني أعرف أية ظروف سنمر بها . لكنك لو سألتني هل من فرصة أخرى غير هذه لأجبتك بالنفي . إما أن تلجأ معي الى الاحراش أو تبقىٰ لتشنق .

فقلت :

ـ وهل في هذا مجال للاختيار !

وتصافحنا متعاهدين على ذلك . ليقول آلن :

ـ والآن دعنا نلقي نظرة أخرىٰ على ذوي السترات الحمر وأخذ بيدي الى الطرف الشمالي الشرقي من الغابة . فاستطعنا أن نرى من بين الاشجار سفح جبل عالٍ ينحدر بشدة الى مياه البحيرة مباشرة .

كان سفحاً وعراً هو عبارة عن حشد هائل من الصخور والأحراش تتخلله شجيرات غرب صغيرة .

ورأينا من بعيد ، باتجاه بالاكولش ، زمراً صغيرة من ذوي السترات الحمر تلوح وتختفي فوق التلال ودونها ، وتأخذ بالصغر كلما توغلت في البعد ، كانوا قد توقفوا عن الصياح وصاروا يلتقطون انفاسهم من التعب ، وان ظلوا يسيرون معتقدين ، ولاشك ، بأنهم سيلحقون بنا قريباً .

نظر آلن إليهم باسماً وقال :

ـ إي . سينال منهم الإعياء قبل أن يصلوا إلى نهاية المطاف ! وهكذا يمكننا ياديفيد ، انت وانا ، أن نجلس ونأكل لقمة ونرتاح مدة كافية ونأخذ جرعة خمر من زجاجتي . ثم ننطلق الى أوكارن ، الى بيت قريبي [جيمس أوف غلينز] ، حيث آخذ ثيابي واسلحتي ومايكفينا من النقود وعندئذٍ سأهتف ياديفيد : «تقدم وجرب حظك» وليكن ميدانك الاحراش .

وهكذا جلسنا وأكلنا وشربنا ، في مكان كنا نستطيع منه رؤية الشمس تغيب وراء سلسلة هائلة من الجبال الجرداء غير المأهولة التي فرض علي الآن أن أتأملها . ثم اننا ، اثناء جلوسنا وفي طريقنا الى (أوكارن) ، حكينا لبعضنا البعض عن مغامراتنا . وها أنا أروي لكم ما صادفه آلن من مغامرات وأخطار لأنها كما يبدو أشد إثارة أو اكثر مدعاة للسرد .

يظهر انه ركض الى سياج السفينة العلوي حال ما هبطت الموجة : رآني واختفيت ثم رآني ثانية أتدحرج على أرضية وكان آخر ماشاهده مني اني تعلقت بذراع الصارية الذي صادفته في البحر . وان هذا أعطاه بعض الأمل بوصولي الى اليابسة وجعلته ، بالتالي ، يترك تلك العلامات والرسائل التي جاءت بي (عقاباً لي) الى أرض آبن المنحوسة .

وحصل حينذاك أن الذين كانوا على ظهر السفينة اسرعوا الى القارب الكبير الذي أنزلوه الى الماء. وفيما كان واحد أو اثنان منهم ينتظر دوره للنزول الى القارب ضربت موجة هائلة السفينة فاقتلعتها من مكانها وأوشكت أن تغرقها لولا أنهاتعلقت ثانية ببعض صخور الجرف . عندما ضربتها الامواج أول الأمر دفعت بمقدمتها الى الاعلى ومؤخرتها الى الماء . وجاءت الموجة الأخيرة لتقلب وضع السفينة فتجعل مقدمتها تغطس في البحر والماء يتدفق الى داخلها كالشلال .

شحب وجه آلن وهو يحكي ماحصل بعد ذلك . كان هناك جريحان راقدين في العنبر . حين شاهدا الماء يتدفق ظنا أن السفينة تغرق فراحا يصرخان بشدة ورعب جعلتا الموجودين في القارب يعملون مجاذيفهم بكل مالديهم من قوة . ولم يكد القارب يبتعد مئتي ياردة حتى جاءت موجة هائلة اقتلعت السفينة من مكانها ونفخت الريح بالأشرعة فبدت السفينة كأنها تحاول اللحاق بالقارب ، لكنها سرعان ماألقت بها على صخور الجرف ، وبدأت تغطس كأن يداً كانت تجرها الى الأعماق .. ودفن البحر السفينة «كوفننانت» الدايسارتية(*) .

لم يتفوهوا بكلمة واجدة وهم يجذفون صوب الشاطيء . فقد اذهلتهم الصرخات المرعوبة . لكن ما أن وضعوا أقدامهم على الشاطيء حتى أفاق هوسيزن من ذهوله وراح يحرضهم على القبض على آلن . فامتنعوا خائفين من المخاطرة ثانية ، الا أن القبطان اندفع كالشيطان يصرخ فيهم قائلاً إن آلن بمفرده ويحمل مبلغاً كبيراً من المال وأنه سبب غرق السفينة وبقية رفاقهم وأنهم يستطيعون الثأر لرفاقهم والحصول على الثروة بضربة واحدة . كانوا سبعة ضد واحد . ولم تكن في تلك البقعة من الشاطيء صخرة يستطيع آلن أن يسند اليها ظهره . وبدأ البحارة بالانتشار

والالتفاف حوله . قال آلن :

ـ وعندئذٍ تقدم الرجل النحيف ذو الشعر الأحمر ، لا أتذكر إسمه .

قلت :

ـ ري ـ آتش .

فقال آلن :

ـ إي . ري ـ آتش ! إنه هو الذي إنضم إلي وحذر الرجل من مغبة المخاطرة بحياتهم قائلاً : «والله سأحمي أنا بنفسي ظهر الرجل» . لم يكن ذلك الرجل النحيف ذو الشعر الأحمر سيئاً من كل الوجوه . فيه خيط من الشهامة .

قلت :

ـ كان طيباً معي بطريقته .

فقال :

ـ وكان طيباً مع آلن . قسماً بإيماني ، لقد وجدت طريقته جيدة جداً ! لكن لاحظ ياديڤيد أن ضياع السفينة وصراخ أولئك الأولاد المساكين أثرا على نفس الرجل بشدة ، وأعتقد أن هذا هو سبب تغييره لموقفه .

قلت :

ـ أنا أيضاً أظن ذلك . لأنه لم يكن في البداية أقل من الآخرين تحمساً للغدر بنا ، لكن ماذا كان رد فعل هوسيزن ؟

فيقول آلن :

ـ أعتقد بأنه استاء كثيراً . الا أن الرجل النحيف صاح بي أن أهرب . والحق أنها كانت انتباهة جيدة فهربت بالفعل . آخر مارأيته أن التف الأوغاد الغاضبون كالانشوطة .

سألته :

ـ ماذا تعني بذلك ؟

فأجاب :

ـ حسناً . شاهدت القبضات تنهال ورجلاً ينهار أرضاً مثل خرقة . لكني رأيت ألا أنتظر . لاحظ أن هناك عدداً من آل كامبل في ذلك الطرف من الجزيرة وهو أمر لايسر سيداً مثلي . لو لم يكن الأمر هكذا لكنت انتظرت لأبحث عنك ، الى جانب الدفاع عن ذلك الرجل النحيف . (ضحكت مع نفسي من إصرار آلن على وصف الرجل بالنحيف ، لأن ذلك الرجل لم يكن أشد نحافة من آلن نفسه إذا أردنا الصدق) .

ويمضي آلن قائلاً :

ـ لذا انطلقت أركض بأقصى ما استطيع وأنا أصرخ كلما صادفني أحد بأن حطام وضحايا سفينة غارقة على الشاطىء . تصور يارجل ، لم يتوقف أحد منهم ليسألني ! وعندما وصلوا الى هناك اكتشفوا أنهم كانوا ضحية استغفال : شيء يستحقه كل واحد من آل كامبل . أعتقد أنهم خرجوا باجتهاد هو أن السفينة غرقت كلياً ولم تتحطم . لكن كان ذلك من سوء حظك . إذ لو أنهم عثروا على حطام لكانوا قلبوا المنطقة بحثاً وعثروا عليك لا محالة .

(*) هيئة المحلفين : مجموعة من أخيار الناس يتم انتخابهم لمساعدة القاضي في المحاكم الانجليزية والأمريكية على التوصل الى قرار الحكم المناسب .

(*) نسبة الى مدينة دايسارت السكوتلاندية .

الفصل التاسع عشر
(بيت الرعب)



هبط الليل ونحن نسير وعادت الغيوم التي انقشعت بعد الظهر ، تتكاثف وتغطي السماء فاظلمت الدنيا بشكل غير مألوف في مثل هذه الأيام من السنة . كان الطريق الذي سلكناه يمر على سفوح وعرة . ورغم أن آلن راح يتقدم بخطوات واثقة ، فإنني لم أتبين طريقه الذي يتبعه .

أخيراً ، في العاشرة والنصف ليلاً وصلنا الى قمة تل ، فرأينا أنواراً في الأسفل . وبدا باب بيت مفتوح يند عنه وهج نار وضوء شموع . وحول البيت يطوف خمسة أشخاص أوستة بسرعة حاملين مشاعل متوهجة . قال آلن :

– لابد أن جيمس أضاع فطنته . إن كان هؤلاء جنوداً ، لا انت

وأنا ، فتلك ورطة جميلة ! لكني أعتقد بأنه لا ينسىٰ أن يضع لنا مرشداً في الطريق ، وهو يعرف جيداً كيف يموه على الجنود طريقنا الذي جئنا منه .

وعلى هذا صفر آلن ثلاث مرات بطريقة معينة . عند الصفير الأول جمد حاملو المشاعل في أماكنهم كأنما صعقهم صوت مخيف .

وعند الصفير الثالث عادت الحركة الى سابق نشاطها .

نزلنا من التل . بعدما أطمأن بالهم ، فاستقبلنا عند بوابة الفناء الخارجي (فالبيت يبدو مثل بيت مزارع ثري) رجل طويل القامة وسيم ، جاوز الخمسين ، ونادىٰ على آلن باللغة الغيلية . قال آلن :

ـ جيمس ستيوارت ، سأطلب منك أن تتحدث باللغة السكوتلاندية لأن السيد الشاب الذي معي لايعرف شيئاً من اللغة الأخرىٰ .

وأضاف . وهو يتأبط ذراعي :

ـ هذا هو . سيد شاب من الأراضي المنخفضة . وهو لورد في بلده أيضاً ، ولكني أعتقد بأن من الأفضل لسلامته أن ننسىٰ إسمه .

التفت الي جيمس أوف غلينز وحياني بالاحترام اللازم ثم التفت الى آلن ، وهتف :

ـ هذه كانت حادثة مريعة . ستجلب المتاعب الى البلد .

وفرك يديه . قال آلن :

ـ رويدك ! لابد أن تتقبل من الحياة حلوها ومرها يارجل روي كامبل مات . فاشكر الله على ذلك !

فقال جيمس :

ـ إي . لكن تمنيت والله أن يعود الى الحياة !

شيء جميل أن تهدد وتتوعد لكن المحذور وقع ياآلن . ومن الذي سيتحمل وزره ؟

الحادثة وقعت في آبن ـ تذكر هذا ياآلن .. وآبن هي التي ستدفع الثمن .. وأنا رجل عندي زوجة وأطفال .

بينما كان الحديث دائراً رحت أنا أتطلع الى الخدم من حولي . رأيت بعضهم على سلالم ينقبون في سقوف البيت أو مخازن الغلال أو زرائب الماشية فيستخرجون منها بنادق وسيوفاً وأسلحة مختلفة فيما كان عدد آخر منهم يحمل الأسلحة بعيداً ليدفنوها في سفح التل كما قدرت من صوت المعاول . كانوا يتحركون في شيء من الفوضىٰ .

فكان اكثر من واحد يمد يده لحمل بندقية في نفس الوقت ، وكانوا يتصادمون أحياناً اثناء ركضهم . وكان جيمس يلتفت بين حين وآخر ويصدر أوامر جديدة لايفهمها أحد كما يبدو . وبدت الوجوه في ضوء المشاعل متعبة مرعوبة . ورغم أنهم كانوا يهمسون كلامهم همساً فقد كان الهمس طافحاً بالقلق والغضب . في تلك اللحظة خرجت فتاة صغيرة من البيت تحمل صرة أو رزمة ، كلما تذكرت وجه آلن وهو ينظر اليها وجدتني أبتسم . سأل :

ـ ماذا تحمل تلك البنية ؟

فقال جيمس بطريقته الخائفة المتملقة قليلاً :

ـ نحن نرتب وضع البيت ياآلن . سيفتشون آين كلها حتى على ضوء الشموع . ولابد أن نبعد عنا الشبهات تماماً . نحن ندفن ماعندنا من اسلحة نارية وسيوف في أعشاب السفح ، كما ترى . وكذلك ثيابك الفرنسية هذه .

فصاح آلن :

ـ أدفن ثيابي الفرنسية ! لا أحقاً !

وأمسك بالرزمة وانطلق الى مخزن الغلال ليغير ثيابه طالباً من قريبة ، في الوقت نفسه ، أن يهتم بي .

وعلى هذا صحبني جيمس الى المطبخ وجلس معي الى الطاولة ، وصار يبتسم لي ويحدثني بمودة أول الأمر . لكن سرعان ماعاوده اكتئابه فانطوى على نفسه وراح يعض على أصابعه .

وكان يتذكرني بين وآخر فيلتفت الي ليمنحني ابتسامة بائسة أو

يقول لي كلمة أو اثنتين ، ليعود الى الانغمار في مخاوفة الخاصة . وكانت زوجته جالسة قرب الموقد تبكي مخفية وجهها براحتيها ، فيما ركع ابنه الاكبر وسط فيض من الأوراق والوثائق يلتقط ورقة من هنا وأخرى من هناك فيلقي بها الى النار لتلتهمها . وكانت هناك بنية خادمة ذات وجه متورد تدور في الغرفة بسرعة عمياء سببها الخوف وتبكي . وبين آونة وأخرى يطل وجه أحد الاتباع صائحاً يسأل عن أية أوامر جديدة .

لم يستطع جيمس البقاء جالساً فاستأذنني في الذهاب للاشراف على العمل معتذراً عما في ذلك من عدم لياقة قائلاً :

ـ أنا لست أنيساً لطيفاً ياسيدي . وبالي مشغول كلياً بهذه الحادثة الفظيعة ، وما يمكن أن تجره من متاعب على الناس الأبرياء .

بعد لحظة شاهد أبنه يحرق وثيقة كان يجب أن يحتفظ بها ، فثارت ثائرته بشكل مخيف وانهال على الصبي ضرباً ، صارخاً به :

ـ هل تخبلت ؟ أتريد أن يعدموا أباك ؟ ونسي وجودي فانفجر يوبخ ابنه باللغة الغيلية فترة غير قليلة والولد لايرد بكلمة واحدة . إنما الزوجة غطت وجهها بمئزرها عند سماعها كلمة الشنق وراحت تنشج بصوت أعلى من السابق .

كانت تلك التعاسة اكثر مما يستطيع غريب مثلي سماعه ورؤيته . فشعرت بالسرور لعودة آلن وهو بكامل أناقته الفرنسية ، رغم أن الثياب التي أتلفها الاستعمال والغبار ماعادت تستحق صفة الأناقة . ثم جاء دوري فاصطحبني أحد أبناء جيمس الى حيث أبدلت ثيابي ، وكنت بحاجة ماسة الى استبدال الثياب ، واعطاني زوجاً من الأحذية الجبلية المصنوعة من جلد الغزال ، وجدته غريباً أول الأمر لكنني لمْ ألبث أن اكتشفت كم هو مريح للقدمين .

حين رجعت كان آلن قد سرد حكايته على صاحب الدار .

فقد فهمت من الحديث أني يجب أن أهرب معه ورأيت الناس

منهمكين في اعداد لوازم سفرنا . فأعطوا كلاً منا سيفاً ومسدسين ، رغم اعترافي بعدم قدرتي على استعمال السيف ، وبعض الذخيرة وكيساً من خبز الشوفان وقدراً حديدية وزجاجة براندي فرنسي أصيل ، فاستعددنا للانطلاق الى الأحراش . كنا نفتقر الى النقود حقاً . فقد بقي معي من نقودي عشرون جنيهاً . أما آلن فلم يكن يملك اكثر من سبعة بنسات بعدما سلم حزامه المملوء بالذهب الى رسول آخر . أما جيمس ، الذي أنفق ماله في السفر الى أدنبره والدفاع عن حقوق الفلاحين أمام القضاء ، فلم يستطع أن يقدم اكثر من ثلاثة شلنات وقليلاً من أنصاف البنس النحاسية . قال آلن :

ـ هذه لاتنفع .

فقال جيمس :

ـ عليك أن تجد ملاذاً أمينا في مكان ما ، وتخبرني . يجب أن تهرب بأسرع مايمكن ياآلن . هذا ليس وقت البقاء من أجل جنيه أو إثنين . ثق أنهم سيسمعون عنك ويطاردونك وأنا واثق بأنهم سيلقون على عاتقك مسؤولية حادث اليوم . وما يلصق بك من تهم يلصق بي أنا أيضاً لأني أقرب أقربائك وأويتك أثناء وجودك في البلد . واذا الصقت بي .. وتوقف عن الكلام وراح يعض عل أصابعه وقد شحب وجهه خوفاً . ثم تابع كلامه :..فسوف يحز في قلوب أصدقائنا أن ينتهي بي الأمر الى حبل المشنقة .

فيرد آلن قائلاً :

ـ سيكون يوم نحس على آپن .

فقال جيمس !

ـ التفكير به يخنقني . آه يارجل ، يارجل ، يارجل ياآلن ! لقد تكلمنا أنت وأنا مثل الحمقىٰ وضرب بجمع يده على الجدار فرن صدى الضربة في أرجاء الدار . قال آلن :

- طيب ، هذا صحيح أيضاً . وصديقي من الأراضي الواطئة (مشيراً الي براسه) نصحني . لو كنت سمعت نصيحته .

فقال جيمس ، مستعيداً رصانته السابقة :

- إصغ إلي إذا قبضوا علي ياآلن فستحتاج الى نقود . مهما قلت أنا او قلت أنت فلن يبرأوا ساحتنا . هل تلاحظ ذلك ؟ حسناً ، تعال معي الى الخارج لأريك كيف سأعمل على نشر إعلان ضدك بنفسي . سأضع جائزة مالية للقبض عليك . نعم ، سأفعل . يحز في النفس أن يحصل هذا بين صديقين حميمين . إذا ألصقوا بي تهمة هذا الحادث فعلي أن أحمي نفسي يارجل ، أتلاحظ ذلك ؟

كان يتكلم بحرارة واستعطاف وهو ممسك بياقة سترة آلن . قال آلن :

- أي . ألاحظ .

- ويجب أن تغادر البلد ياآلن .. نعم ... وتغادر سكوتلانده كلها ، أنت وصديقك من الأراضي الواطئة أيضاً ، لأنني سأدعو في الاعلان الى القبض على صديقك . أتفهم هذا ياآلن ؟ قل لي إنك تفهم ما أقصد أرجوك !

أظن أن آلن غضب قليلاً ، شاعراً بالحرج ، وقال :

- أنا خجلان جداً لأني جئت به الى هنا ياجيمس . كأنك تجعل مني خائناً !

فصاح جيمس :

- بالله عليك ، ياآلن ، يارجل . واجه الأمور على حقيقتها ! هو الآخر سيطارد لامحالة . منغو كامبل سيدعو الى القاء القبض عليه بالتأكيد ، فلم لا أدعو أنا الآخر ؟

ثم ، أنا رب أسرة ياآلن .

وبعد فترة صمت سادت الاثنين أضاف جيمس :

- ثم تذكر ياآلن أن هيئة المحلفين من آل كامبل .

قال آلن بعد تأمل :

- ثمة مسألة واحدة ..لا أحد يعرف إسمه .

فصاح جيمس ، كأنه يعرف اسمي حق المعرفة ولايريد استغلال هذه المعرفة :

- لن يعرفوا أبداً . لك وعد مني ياآلن ! مجرد الثياب التي يرتديها وشكله وعمره وما الى ذلك .

لايمكنني أن اذكر أقل من هذا .

فصاح آلن بلهجة صارمة :

- لو كان المقصود إبنك ، أكنت تغدر بالفتى ؟

أكنت تغير له ثيابه ثم تشي به ؟

فقال جيمس :

- لا ، لا ياآلن .. لا ، لا . أقصد الثياب التي نزعها ..الثياب التي رآها منغو كامبل . الرجل لحقه العار حقاً ، وهو يتشبث بكل قشة . واستطيع القول إنه يرى وجوه أعدائه التقليديين أمام منصة القضاء ومقاعد هيئة المحلفين ، وحبال المشانق في الخلف فالتفت آلن الي سائلاً :

- حسناً ياسيدي ، ماقولك في هذا ؟ أنت هنا في حماية كلمة شرف مني ودوري أن لا أتركك ترى الا مايسرك .

قلت :

- أنا ماعندي من قول سوى كلمة واحدة : هي أني لست طرفاً بكل هذا الخلاف . أنا غريب تماماً . لكن المنطق يقول إن اللوم يقع على عاتق الجاني ، أي على عاتق الرجل الذي أطلق النار . فانشر إعلاناً ، كما تسميه ، عن الرجل .. طارده ... ودع الناس الأبرياء النزيهين يمشون بحرية وأمان .

هنا صاح جيمس وآلن معاً برعب ، متوسلين إليَّ أن أمسك لساني ، لأن هذا أمر لايمكن التفكير به . فماذا سيظن آل كاميرون

في هذه الحالة ؟ (تساؤل اكد لي أن الجاني لابد واحد من آل كاميرون من مقاطعة مامور) ، وماذا سيكون مصير الولد لو ألقي القبض عليه ، قائلين : «أنت ماعندك فكرة واضحة بلاشك ؟» فيئست من مناقشتهما . قلت :

ـ حسناً جداً ، إذن. أنشر اعلاناً عني ، عن آلن ، عن الملك جورج ! ثلاثتنا أبرياء ، ويبدو أن هذا هو المطلوب.

ثم التفت الى جيمس قائلاً بعدما تمالكت هدوئي:

ـ أنا ، ياسيدي ، صديق آلن على الأقل واذا كان بامكاني مساعدة أصدقائه فلن أتردد في ركوب المخاطر .

ورأيت أن أرسم على وجهي علائم الرضا والقبول لأني رأيت آلن في ورطة . يضاف الى ذلك (حسبما ظننت) أنهما سينشران الاعلان حال ما أدير ظهري ، سواء رضيت أم لم أرض . لكنني اكتشفت خطأي . إذ ما أن تفوهت بكلماتي تلك حتى قفزت السيدة ستيوارت من كرسيها وركضت إلينا فبكت على كتفي أولاً ثم على كتف آلن داعية لنا بالخير لطيبة موقفنا من عائلتها ، قائلة :

ـ أما بالنسبة لك ياآلن فليس الأمر أكثر من تأدية واجب . أما هذا الفتى فقد جاءنا في أحلك الساعات ورأى هذا السيد الطيب يتوسل مثل رجل يتودد الى حبيبته ، هذا الرجل الذي يحق له أن يصدر الأوامر مثل أي ملك .

والتفتت الي :

ـ أما أنت ياصغيري فقلبي حزين لأني لم أعرف اسمك لكني عرفت وجهك وسأظل أحتفظ بصورته وأذكره وادعو له مادام في صدري قلب يخفق .

وقبلتني وانفجرت تبكي ثانية بمرارة جعلتني أطرق خجلاً . قال آلن بلهجة شديدة السخف :

ـ سحقاً ، سحقاً ! النهار يطلع بسرعة في شهر تموز هذا . وغدا

ستقوم القيامة في آين . ستأتي كتائب الخيالة يتصايحون «كراوتشن ، كراوتشن !»(*) ويتراكض ذوو السترات الحمر ... وينبغي علينا أن نعجل بالذهاب .

فودعنا العائلة وانطلقنا ، متجهين شرقاً بعض الشيء سالكين الطرق والمسالك الوعرة كالسابق . وكان الليل حالك السواد والجو صافياً لطيفاً .

(*) «كراوتشن» هو نداء التجمع لدى آل كامبل .

الفصل العشرون
(الهروب في الاحراش: الصخور)



كنا نمشي حيناً ونركض حيناً . ومع دنو الفجر صرنا نركض أكثر مما نمشي . ورأينا اكواخاً وبيوتاً متناثرة مختبئة بين التلال يربو عددها على العشرين ، رغم أن المنطقة تبدو صحراء مقفرة من النـاس على وجـه العموم . حين جئنا الى أحد تلك البيوت تـركني آلن في الدرب ومضى بمفرده فدق بقبضة يده على الجدار وصار يحكي عبر النافذة مع شخص أفاق من النوم . تلك كانت طريقة إيصال الأخبار التي من الأهمية في ذلك البلد مايجعل آلن يتوقف لسماعها حتى وهو هارب . والحق أن الاخبار كانت تنقل بصورة منتظمة حتى أن أكثر من نصف عدد البيوت التي مررنا عليها قد عرف بنبأ الجريمة . بينما لاحظت أن سكان البيـوت الأخرى (وأنا اراقبهم عن بعد) استقبلوا النبأ بذعر شديـد أكثر من

الدهشة .

ورغم كل ركضنا واستعجالنا الوصول طلع النهار علينا ونحن مانزال بعيدين عن أي ملجأ . فقد فاجأنا الصبح ونحن في واد كبير تكسو أرضه الصخور ويخترقه نهر جارف . وتقوم على جوانبه جبال وعـرة . كان وادياً أجرد لاعشب فيه ولاشجر ، بقيت أظن حيناً من الزمن أنه (وادي غلينكو) الذي جرت فيه المذبحة في أيام الملك وليام(*) إنما الذي يعنيني الآن هو خط سيرنا : يتكون طريقنا من دروب قصيرة هنا وتحـويلات طويلة هناك . كنا نسير بسرعة وفي الليل عادة وكانت اسماء الاماكن التي نمر فيها وأسأل عنها تذكر لي باللغة الغيلية وكنت سرعان ما أنساها .

كشفت لنا خيوط الفجر الأولى عن هذا المكان المريح ورأيت آلن يقطب حاجبيه باستياء . قال :

- هذا المكان لا يلائمنا . هذا المكان يراقبونه لامحالة ، قال هذا وركض هابطاً الى شاطىء النهر بأقصى مالديه من قوة . كان النهر ينحدر في دوي مخيف جعل أمعائي تنتوي وكانت سحابة صغيرة من ذرات الماء المتطاير ترتفع فوق الشلال .

لم ينظر آلن يمنة أو يسرة ، بل قفز الى الصخرة التي تتوسط المجري المائي الصاخب ، نازلاً على يديه وركبتيه ليتوازن . وذلك أن الصخرة كانت صغيرة وكان يمكن أن ينزلق منها الى الماء الجارف لولم يفعل ذلك . لم يكن عندي وقت لقياس المسافة أولتقدير المخاطر التي تنتظرني ، بل تبعته وقفزت الى الصخرة فأمسك بي وأعانني على الاستقرار .

وهكذا وقفنا جنباً الى جنب على صخرة صغيرة زلقة بفعل رشاش الماء . كانت الهوة التي علينا أن نقفز من فوقها أوسع من سابقتها بكثير والنهر يهدر من كل جانب . حين رأيت أين أقف اجتاحني رعب مميت فغطيت عيني بيديّ ، فأمسك بي آلن وهزني . رأيته يتكلم ، لكن هدير الشلال واضطرابي الشديد حالا دون سماعي مايقول . كل مارأيت هو وجهه المحمر غضباً وقدمه يدق بها على الصخرة .

كذلك رأيت الماء يصخب من حولي وسحابة الرذاذ فوق رؤوسنا ، فغطيت عيني ثانية وصرت أرتعش .

في اللحظة التالية وضع آلن زجاجة البراندي على شفتي وأجبرني على أخذ جرعة جعلت الدم يقفز الى رأسي . ثم أحاط فمه بكفيه مثل البوق وقربه من أذني وصاح : (تماسك أو اغرق !» . وأدار لي ظهره وقفز فوق الجانب العريض من النهير فحط على الجانب الآخر سالماً .

بقيت وحدي على الصخرة ، فأعطاني هذا مجالاً أكبر للحركة .

وجعل البراندي أذنيَّ تشتعلان . ورأيت هذا المثال الجيد أمامي فتملكني شعور صحيح بأني اذا لم أقفز في الحال فلن أغادر الصخرة مطلقاً . فثنيت ركبتي ورميت بنفسي الى الأمام بهذا الفيض من الغضب واليأس الذي يجتاح روحي أحياناً بدل الشجاعة . لم أصل ، بل وصلت يداي جرف النهر . تعلقت بالصخر فانـزلقت يداي وتشبثت ثانية وانزلقت يداي مرة أخرى . ووجدتني آخذ بالانحدار الى الهوة وفي تلك اللحظة أمسك آلن بي ، من شعري أولاً ، ثم من ياقتي وبـذل جهداً عظيماً ليجرني الى شاطىء الأمان .

لم يقل كلمة واحدة ، بل انطلق يركض طالباً الفرار . فكان علي أن أتحامل واقفاً على قدمي وأركض وراءه .

كنت مرهقاً . أما الآن فقد أضيفت الى تعبي حمى ورضوض وكنت أترنح بعض الشيء بتأثير البراندي . وصرت أتعثـر أثناء الـركض . وشعرت بألم موضعي حاد كاد أن يستولي علي وعندما توقف آلن أخيراً في ظل صخرة هائلة شامخة بين الصخور المحيطة بها ، كانت أنفاس ديفيد بالفور قد تقطعت ، وبلغ منه الاعياء أقصاه .

قلت : صخرة هائلـة ؟ هي في الحقيقة ،صخـرتان متعـانقتان من الأعلى ، علوهما حوالي عشرين قدماً ، وتبدوان غير قابلتين للتسلق من النظرة الأولى . حتى آلن (الذي يمكن القول عنه إنه يملك أربع أيدٍ !) ففشل مرتين في التسلق . ولم يستطع في المحاولة الثالثة من الوصول الى

أعلى الصخرة الا بالصعود على كتفي ومن ثم القفز باقصى قوة الى القمة ، وشعرت لحظتها بأنه لابد انه كسر عظام رقبتي . وما أن أستقر فوق بأنه لابد كسر عظام رقبتي . وما أن أستقر فوق الصخرة حتى أدلى لي نطاقه الجلدي فتمسكت به ، وبمساعدة موضعي قدم صغيرين في جدار الصخرة استطعت الصعود الى جانبه .

عندئذٍ أدركت لم صعدنا الى هذا المكان . فقد كانت الصخرتان مجوفتين من الأعلى ومتقاربتين بما يجعل المكان مثل صحن أوحفرة تتسع لاختباء ثلاثة أشخاص أو أربعة .

وأدركت أن الذي جعل آلن يركض ويتسلق الصخرة بمثل هذا العنف والسرعة الجنونية من دون أن ينطق بكلمة واحدة ، خوف مميت من فقدان العدالة . وظل صامتاً حتى بعد اختبائنا في ذلك المكان الأمين ، سوى أن عبوسه خف عن ذي قبل . وانبطح في داخل الحفرة وراح ينظر بعين واحدة من فوق الحافة مستطلعاً المكان في كل الإتجاهات .

جاء الفجر وصرنا نستطيع رؤية الجوانب الصخرية للوادي وقعره الذي تناثرت فيه الصخور والنهر بمجراه الملتوي ومنحدراته المائية الجارفة . لكننا لم نر أثراً لدخان صادر عن بيت أو أي مخلوق فيما عدا النسور تتصارخ في الجو .

إبتسم آلن أخيراً وقال :

- إي ... الآن نقدر على الاستراحة .

ثم تطلع إلي وقال مداعباً :

- لست خفيفاً جداً في القفز .

أظن أن وجهي أحمرَّ خجلاً ، ذلك لأن آلن اضاف في الحال :

- مهلاً ، مهلاً ! مجرد لوم بسيط . الحق أن الخوف من شيء والإقدام عليه رغم ذلك هو الذي يصنع أفضل الرجال . ثم هناك ماء . الماء شيء يخيفني حتى أنا . لا ، لا ، لست الملام . أنا الملوم .

سألته لماذا . فقال :

ـ لماذا ؟ لأني برهنت على حماقتي هذه الليلة . أولاً لأني سلكت طريقاً مغلوطاً ، وفي بلدي آين ! بحيث أن النهار هبط علينا ونحن في غير المكان المطلوب . لولا خطأي لما كنا في هذا المكان غير المريح وغير الأمين . ثم (وهذا أسوأ الأمرين بالنسبة لرجل قضى عمراً طويلاً في الاحراش مثلي) يفوتني التزود بالماء ففي مثل هذا اليوم الطويل من أيام الصيف ، وليس معي سوى زجاجة كحول . قد تتصور أن هذه مسألـة ليست مهمة . ولكن أصبر لترى كم سنتعذب ياديڤيد الى أن يهبط الليل .

كنت أريد استعادة منزلتي في نظره فعرضت عليه ، إن هو تخلص من البراندي ، أن أنزل الى النهر فأملأ القنينة فيجيب :

ـ لن أضحي بالكحول الجيد . كان نعم الصديق لك في هذه الليلة ، والا كنت ـ في رأيي المتواضـع ـ ماتزال قابعاً على الصخرة وسط التيار .

ويقول : ـ واكثر من ذلـك .. لعلك لاحظت (وأنت الـرجل الـدقيق النظر) أن آلن بريك ستيوارت ربما كان يمشي أسرع من المعتاد .

فصحت :

ـ أنت ! كنت تركض حد الإنفجار .

فقال :

ـ أحقاً ؟ حسناً ؟ حسناً ، إذن . صدقني أن الوقت كان أثمن من أن يضيع . والآن كفى كلاماً . خذ قسطك من النوم وأنا سأراقب .

فتمددت لأنام . كان هناك بعض التراب المختلط بالأعشاب اليابسة نمت فيه بعض أوراق السرخس التي جعلت منها فراشاً . وكنت ماأزال اسمع صراخ النسور حين غلبني النوم .

أستطيع القول إن الساعة كانت في حدود التاسعة صبـاحاً حـين أيقظني آلن بخشونة واضعاً يده على فمي ، وهمس :

ـ هس ! كنت تشخر .

فقلت ، وأنا مستغرب لعبوسه وقلقه :

ـ ولم لا ؟

فأطل من فوق حافة الصخرة وأشار الي بأن أفعل مثله .

كان الوقت ضحىً والسماء صافية والحر شديداً والوادي واضحاً وضوح الصورة . وكان هناك مخيم للجنود ذوي السترات الحمر على بعد حوالي نصف ميل من الشلال . وفي الوسط نار متأججة عليها بعض قدور الطبخ . وعلى قمة صخرة تكاد توازينا في الارتفاع وقف حارس تلمع أسلحته تحت ضوء الشمس . فيما انتشر حراس آخرون على امتداد جانب النهر نزولاً يروحون حراس آخرون على امتداد جانب النهر نزولاً يروحون ويغدون في حركة منتظمة وآخرون وقفوا في أماكن عالية للاستطلاع والمراقبة . أما في أعلى الوادي ، حيث الفضاء أرحب ، فقد أخذ نقاط الحراسة جنود خيّالة كنا نراهم عن بعد يروحون ويغدون على خيولهم . نزولاً في الوادي كان جنود المشاة منتشرين ، إنما أقل كثافة بسبب من اتساع النهر فجأة بفضل روافد كثيرة . وكان الجنود مشغولين بالبحث عن مخاضة أو صخور تساعدهم على العبور .

نظرت اليهم بسرعة وأخفيت رأسي . شيء غريب أن نجد هذا الوادي ، الذي كان مقفراً في ساعة الفجر يعج بالسلاح والجنود ذوي السترات الحمر . قال آلن :

ـ أرأيت ؟ هذا ماكنت أخشاه ياديفي : أن يراقبوا جانب النهر . بدأوا يأتون منذ ساعتين .. و .. آه يارجل ! ماأثقل نومك ! مركزنا حرج . اذا صعدوا الى التلال المحيطة أمكنهم أن يرونا بالمنظار . لكن اذا ظلوا في قعر الوادي فأمامنا فرصة للنجاة . عدد الحراس أقل أسفل النهر ، وعندما يأتي الليل سنحاول التسلل .

سألته :

ـ وماذا نفعل الى أن يأتي الليل ؟

كلمة «تحميص» السكوتلاندية انطبقت علينا في ذلك النهار .

تذكروا أننا نضطجع على قمة صخرة عارية مثل مسامير تثبيت على

حزام . فكانت الشمس تشوينا بقسوة وبلغت حرارة الصخور درجة صار معها مجرد اللمس مؤذياً ، ولم تكن البقعة الصغيرة المكسوة بالعشب ، التي تعطي بعض الرطوبة ، تتسع لأكثر من واحد في كل مرة . وصرنا نتناوب التمدد على الصخر العادي الملتهب ، أشبه مانكون بذلك القديس الذي استشهد على الحديد المحمي بالنار . وعجبت في نفسي لبعض المفارقات ففي نفس ذلك الصيف ، ولكن على بعد مسيرة بضعة أيام ، عانيت كل المعاناة من البرد على الجزيرة المعزولة وها أنا أعاني الآن من الحر الشديد فوق هذه الصخرة .

ولم تكن لدينا قطرة ماء بل براندي هو أسوأ من اللاشيىء . الا أننا عملنا بكل ما في وسعنا على إبقاء القنينة باردة بدفنها في التراب والعشب . وكنا نأخذ بأيدينا ونرطب صدورنا وأصداغنا .

دأب الجنود على الحركة في باطن الوادي طوال النهار ، مغيرين الحراس أو ذاهبين في دوريات تفتيش بين الصخور . لكن الأحراش والصخور كانت من الوفرة والكثافة مايجعل محاولة رؤية الجنود بينها كمن يبحث عن إبرة في كومة من القش . غير أننا كنا نرى الجنود يطعنون بحرابهم الأحراش فسرت رعدة خوف في جسمي . وكم من مرة احاط الجنود بصخرتنا فكنا نجمد في مكاننا ونكتم أنفاسنا .

كانت تلك أول مرة اسمع فيها الكلام الانكليزي الصحيح . فبينما كان أحد الجنود يتقدم اتكأ بكفه على جانب الصخرة العملاقة التي نختبىء فوقها وسرعان ماسحب يده بعدما لسعته الحرارة الشديدة وراح يشتم . وعجبت لطريقته في ابتلاع بعض مخارج الحروف . صحيح أني سمعت الصبي (رانسم) يتكلم بهذا الشكل وكانت طريقته خليطاً غير متجانس من طرائق ولهجات جمعها كيفما اتفق ، حتى أني اعتبرت كلامة نوعاً من نزق الطفولة . لكنني اندهشت غاية الاندهاش عند سماعي رجلاً يتكلم على هذا النحو . وأقول بصراحة إنني لم أرتح لهذا اللفظ ولا لقواعد اللغة الانكليزية ولربما لاحظ من يملك نظرة

فاحصة دقيقة خروجاً على هذه القواعد هنا وهناك في هذه السيرة .

ازدادت وطأة الحر على تلك الصخرة مع مضي الساعات بطيئة زاخرة بالألم . فالشمس تزداد ضراوة والصخر يزداد اشتعالاً . وكان هناك الغثيان والحمى ونوبات من الألم كأنها أوجاع الروماتزم . تذكرت حينذاك ، ولطالما تذكرت فيما بعد ، شطرين من مزاميرنا السكوتلاندية يقولان :

لا القمر يؤذيك في الليل
ولا الشمس في النهار

والحق أن العناية الإلهية هي التي نجتنا من لهيب الشمس .

أخيراً ، حوالي الثانية بعد الظهر - وكان الحر قد بلغ حداً لايطاق - لاح بصيص من الأمل يشجع المرء على المقاومة وتحمل الألم . فقد انحرفت الشمس نحو الغرب تاركة بعض الظل على الجانب الشرقي للصخرة ، وهو الجانب العالي الذي لاتصل اليه أنظار الجند . قال آلن : مامن موت أحسن من موت !

وانحدر من على حافة الصخرة الى الأرض في الجانب الظليل . فتبعته حالاً والقيت بنفسي نازلاً فوقعت أرضاً بكل طولي ضعيفاً محموماً لطول البقاء تحت لهب الشمس . هناك اضطجعنا ساعة أو اثنتين يسحقنا الصداع وآلام الأطراف ولاطاقة لنا على الحركة معرضين لأن يرانا اي جندي يمر من تلك الناحية . لكن أحداً منهم لم يمر ، بل من الناحية الأخرى . وهكذا ظلت الصخرة تحمينا حتى وضعنا الجديد .

وسرعان ما بدأنا نستعيد قوانا . ولما كان الجنود متجمعين قرب النهر في تلك الآونة ، فقد اقترح آلن أن نبدأ الهرب . ساعتها ماكنت أخاف من شيء في الدنيا قدر خوفي من العودة الى قمة الصخرة . كنت أرحب بأي شيء سواها ، ولذا تهيأنا للإنطلاق وبدأنا ننسل من صخرة الى أخرى ، زاحفين على بطننا حيناً وراكضين بأقصى سرعة حيناً آخر مرتجفين خوفاً .

بدأ الفتور يستولي على الجنود بعدما فتشوا في هـذا الجانب من الوادي ودب النعاس في عيونهم بسبب الحر فمكثوا في نقاطهم اوصاروا يكتفون بمراقبة شاطىء النهر . وعلى هذا رحنا نتحرك من أسفل الوادي نحو المرتفعات متبعدين عنهم بصورة أمينة . الا أن العملية كانت مرهقة جداً . فالمرء يحتاج الى مئة عين في جسمه ليرى أين يتجه في تلك الأرض التي لايعـرف جبلها من واديهـا ، وعلى بعـد خطـوات منـه حـراس منتشرون . وحين كان الأمـر يتطلب اجتياز منطقـة مكشوفـة لم تكن السرعة وحدها تكفي ، بل كان علينا أن نقدر بأقصى سرعة لا المسافة التي تفصل بيننا وبين الأمان ، بل وحتى الصخور التي يجب أن نضع عليها أقدامنا . ذلك أن الهواء كان ساكناً في عصر ذلك اليوم والصمت مخيماً حتى أن رمي حصاة كفيل بأن يحدث دوياً كدوي اطلاق نار ، يتردد صداه بين التلال والصخور .

مع غروب الشمس كنا قد ابتعـدنا مسـافة لابـأس بها عـلى بطء تحركنا . ثم وصلنا الى مكان يبعد مخاوفنا . فقد وجدنا أمامنا رافداً عميقاً جارفاً يجري في تلك البقعة مندفعاً ليصب في النهر . ما أن رأيناه حتى انطرحنا على حافته وغطسنا رأسينا وأكتافنا في الماء .

لا أستطيع القول أي الأمرين أفرحنا أكثر ، متعة الانغمار في الماء البارد أم لذة ارواء عطشنا الشديد .

لبثنا متمددين هناك (يسترنا جرف الرافد العالي عن الانظار) وشربنا وشربنا وغمرنا صدرينا بالماء وغمسنا أيدينا الى أن شعرنا بهـا تكاد تتجمد من البرد . أخيراً ، بعدما تجدد نشاطنا بدرجة رائعة ، اخرجنا كيس الطعام فعملنا حساء من طحين الشوفان والماء البارد . كان حساء بارداً ، لكنه لذيذ بالنسبة لرجل جائع ، أو هو الطعام الوحيد الممكن بدون نار طبخ حيث لا مجال لأنـاس مطاردين مثلنـا في الأحراش أن يوقدوا ناراً .

انطلقنا ثانية حال ماهبطت ظلال المساء ، متحركـين بنفس الحذر

السابق أول الأمر . لكن سرعان ماتخلينا عن حذرنا ورحنا نمشي بسرعة منتصبي القامة . كان الطريق كثير الالتواء صعباً يمر من سفوح شديدة الانحدار وحافات صخور عالية . واكتست صفحة السماء بالغيوم ساعة الغروب جاعلة الليلة حالكة الظلمة تتخللها برودة منعشة . فلم يتعبني السير ، إنما كنت فريسة الخوف من الانزلاق والسقوط من على السفوح الشاهقة . كما لم أتبين اتجاهنا على وجه التحديد .

أخيراً أطل علينا القمر فوجدت أننا لم نشذ عن الطريق .

كان القمر في الربع الأخير منه ، وكانت الغيوم تحجبه عنا فترات طويلة ثم ظهر برهة فرأيت على نوره رؤوس جبال داكنة كثيرة تنعكس ظلالها السوداء في مياه خليج بحري ضيق .

توقفنا عند رؤية هذا المنظر : أنا مدهوشا للإرتفاع الذي نسير فيه (فكأننا نمشي على الغيوم) وآلن فاحصاً المكان لتحديد الاتجاه .

بدا الارتياح الشديد على وجهه ، إذ لابد أنه تأكد من إننا ابتعدنا عن متناول جميع أعدائنا مسافة كافية .

فقد لبث طوال الليل يمشي بهمة ويدندن ويصفر مختلف الألحان ـ عسكرية ، بهيجة ، حزينة ، الحان رقصات «الريل» التي جعلتنا نسرع في خطونا .. والحان من الجنوب غمرت قلبي فرحاً وحنيناً الى أرضي . وكانت كل تلك الالحان رفيق طريق لنا في تلك الجبال الشاهقة القاتمة الجرداء .

(*) المقصود به : الملك وليام أورنج ، ملك هانوفر الألماني الذي جاء به الانكليز الى عرش بريطانيا بعد الاطاحة بالملك جيمس الثاني من عائلة ستيوارت السكوتلاندية في أواخر القرن السابع عشر .

الفصل الحادي والعشرون
(الهرب في الاحراش: وادي كورناكي)



وصلنا الى غايتنا - وهي حافة صخرية شاهقة ينحدر من فوقها شلال وفي جانب منها كهف صغير . وكان الظلام لايزال مخيماً ، على قصر ليالي أوائل تموز . هناك نمت غابة صغيرة من أشجار الغرب تنتهي الى غابة صغيرة أخرى من أشجار الصنوبر . كان الغدير مليئاً بالاسماك والغابة بالحمام والسفح الآخر بانواع الطيور المغردة . أما طيور الوقواق فلاحصر لها .

ويستطيع المرء ان يطل من فوق الحافة الصخرية فيرى اقاليم (مامور) والخليج البحري الذي يفصله عن أرض آبن . ولا أدري ماالذي جعلني أعجب بهذه القمة من بين قمم شاهقة كثيرة وأجد متعة في الجلوس هناك والنظر الى الجبال المحيطة .

تدعى الحافة الصخرية باسم (وادي كورناكي) . ورغم ارتفاعها وقربها من البحر الذي غالباً مايجعلها محاطة بالغيوم ، فإنها مكان جميل على وجه العموم ، فكانت الأيام الخمسة التي قضيناها هناك أياماً سعيدة .

فكنا ننام في كهف ، جاعلين من الأغصان وأوراق الشجر فراشاً وملتحفين معطف آلن السابغ ، وكان ثمة منخفض أمين مخفي عند إحدىٰ التواءات الغدير غامرنا باشعال النار فيه حتى نتدفأ ساعة تكون السماء غائمة ونطبخ المرق ونشوي الاسماك الصغيرة التي نمسك بها بأيدينا بين الصخور وقرب جرف الغدير . كانت تلك تسليتنا الأولى وسبيلنا الى قضاء الوقت . ولم يكن همنا مجرد خزن الطعام للأيام السود ، بل كنا نتبارى ونحد متعة كبيرة في ذلك . فكنا نقضي أغلب ساعات النهار عند الغدير أو نخوض في الماء الى وسطنا ملتمسين الاسماك أو منبشين عنها ـ كما يقولون ـ بين الصخور . قد تكون أكبر سمكة أمسكت بها لاتزيد على ربع باون وزناً . غير أن الاسماك ، على صغرها ، كانت سمينة طيبة المذاق وكان ينقصها القليل من الملح لتصبح لذيذة بعد الشي .

أخذ آلن على عاتقه ان يعلمني المبارزة بالسيف كلما سنحت فرصة وذلك لأن جهلي آلمه كثيراً . يضاف الى ذلك أن تفوقي عليه أحياناً بصيد السمك جعله يفضل الرياضة التي تحقق له التفوق علي بصورة مطلقة .

كانت الدروس تعذيباً أكثر مما هي تدريب . فقد ظل آلن يوبخني بشكل عنيف طوال الوقت ويهجم علي بضراوة حتى كدت أتصور أنه سيطعنني بالسيف . وكم من مرة سولت لي نفسي الهرب ، لكني كنت أتماسك وأثبت في مكاني . وقد علمتني دروس المبارزة شيئاً ، لكن أهم ماتعلمته هو أن أقف بثبات وانتباه وهو كل المطلوب في الغالب . صحيح أني لم استطع قط أن أرضي استاذي ، لكنني كنت راضياً

عن نفسي على وجه العموم .

ولكن لاتظنوا أننا أهملنا غايتنا الاساسية : ألا وهي الهرب والابتعاد . قال لي آلن صباح وصولنا :

ـ ستمر أيام كثيرة قبل أن يفكر ذوو السترات الحمر بالمجيء الى كورناكي . فيجب أن نوصل خبراً الى جيمس لكي يدبر لنا بعض المال .

فأقول .

ـ كيف نرسل له الخبر ؟ نحن هنا منقطعان عن الدنيا ولانجرؤ على مغادرة المكان حتى الآن . فما من أحد يستطيع القيام بهذه المهمة الا اذا أرسلت الطيور التي في السماء رسلاً .

فقال آلن :

ـ نعم ؟ أنت رجل قليل الحيلة ياديڤيد .

ثم غرق في التفكير ، محدقاً بجمرات النار . وفجأة تناول قطعة خشب وجعل منها صليباً أحرق اطرافه الأربعة قليلاً ثم تطلع الي بشيء من الخجل وقال :

ـ هل يمكن أن تقرضني الزر الذي أعطيتك . قد يبدو غريباً أن تسترد هدية ، صدقني ، ساكون مجنوناً لو قطعت زراً آخر .

أعطيته الزر فخاطه الى قطعة قماش صغيرة أخذها من معطفه وربطها بالصليب وشد اليه غصين صنوبر صغيراً وآخر من شجر التنوب . نظر الى عمله بارتياح وقال :

ـ والآن ..ثمة «كلاتشان» صغيرة (مايقابل القرية الصغيرة لدى الانكليز) ليست بعيدة عن كورناكي ، تدعى (كولسناكن) . هناك ، هناك يسكن العديد من أصدقائي بعضهم أأتمنه على حياتي وبعضهم بين بين لاحظ ياديڤيد . هناك جائزة لمن يأتي برأسينا جيمس نفسه واضع الجائزة . أما بالنسبة لآل كامبل فإنهم مستعدون لإنفاق الأموال الطائلة بغية ايذاء واحد من آل

ستيوارت . لو لم يكن الأمر هكذا لكنت ذهبت الى كولسناكن ووضعت مصيري بأيدي هؤلاء الناس بمثل البساطة التي أودع بها قفازي عند أحدهم .

قلت :

ـ ولكن مادام الأمر هكذا ..

فقال :

ـ مادام الأمر هكذا ، فانني سعيد لأن أحداً منهم لم يرني . الناس الأشرار في كل مكان وأسوأ من هؤلاء ضعاف النفوس . لذلك ماأن يهبط الظلام ثانية حتى أنسل الى القرية وأضع هذا الشيء الذي صنعته عند نافذة صديق طيب ، جون بريك ماك كول ، وهو «بومان» في أرض آبن(*) .

فأقول :

ـ أتمنى لك التوفيق من كل قلبي . وماذا تظنه سيفعل ؟

فيجيب آلن :

ـ طيب . آمل أن يكون رجلاً فهيماً . لأني ، والله ، خائف الا يفهم الرسالة بدرجة كافية . لكني لاأفكر بغير هذه الطريقة الآن . هذا الصليب من نوع الصليب المسخم أو الصليب المحروق ، الذي هو إشارة التجمع لدى قبائلنا . لكن الرجل سيفهم أن المطلوب به ليس استنفار القبيلة لأني سأضعه في النافذة بدون رسالة مكتوبة . عندئذٍ سيقول لنفسه : «ليس المطلوب استنفار العشيرة ، بل شيىء آخر» .

ثم يرى زر سترتي ويعرف أنه واحد من أزرار [دنكان ستيوارت] . حينئذٍ يقول لنفسه : «إبن دنكان في الأحراش ويحتاج الي» .

قلت :

ـ حسناً . يجوز . لكن حتى لو افترضنا أنه سيفهم بهذه الصورة

فالأحراش واسعة بيننا وبين منطقة الفورث ـ الخليج ـ

فيقول آلن :

ـ هذا صحيح تماماً . لكن جون بريك سيري غصين الصنوبر وغصين التنوب ويقول لنفسه (إذا كان رجلاً على شيء من النباهة ، وهذا ماأشك به) : «آلن مختبىء في غابة من اشجار الصنوبر والتنوب» . عندئذٍ سيفكر : «مثل هذه الغابة غير كثير في المنطقة» . حينئذٍ سيأتي إلينا في كورناكي . فاذا لم يفعل ياديفي ، فليذهب الى جهنم . ولايهمني فهو لا يساوي الملح الذي يضعه في مرقه .

قلت أعابته قليلاً :

ـ إيه يارجل ، أنت شديد الحذلقة ! أليس الأبسط من هذا كله أن تكتب له بضع كلمات على وريقة ؟ فيجيب آلن معابثاً :

ـ ملاحظة ممتازة يامستر ديفيد بالفور أوف شوز . سهل علي أن اكتب بضع كلمات ، لكن قراءتها ستكون مهمة عسيرة على جون بريك .

عليه ، عندئذٍ ، أن يذهب الى مدرسة لمدة سنتين أو ثلاث ، ومن الممكن ، في هذه الحالة ، أن نضجر من الإنتظار .

وهكذا حمل آلن صليبه المحروق ، في تلك الليلة ، و وضعه في شباك البومان . وتعرض لبعض الخطر اثناء عودته .

فقد نبحت عليه الكلاب وخرج الناس من بيوتهم ، واعتقد أنه سمع بعض قعقعة سلاح ورأى احد ذوي الستر الحمر يظهر في احد الابواب . الأمر الذي جعلنا نختبىء ، من باب الحيطة ، في طرف الغابة طوال اليوم التالي ونراقب الدرب بانتباه ، حتى إذا كان القادم جون بريك أخذناه الى مخبئنا . فإن كانوا جنوداً كان لدينا متسع من الوقت للهرب .

حوالي الظهر لمحنا رجلاً يتسلق بمشقة السفح المكشوف تحت وهج الشمس ، ويتلفت ناظراً من حوله مظللاً عينيه بكفه . وما أن

رآه آلن حتى أطلق صفيراً فاستدار الرجل وتوجه إلينا . و «راقبه» آلن مرة أخرى فرآه يقترب اكثر من ذي قبل . وراح يوجهه بواسطة الصفير صوب البقعة التي اختبئنا فيها .

كان رجلاً أشعث الشعر ملتحياً خسن الملامح في حدود الأربعين من العمر ، أكل وجهه الجدري . وتبدو عليه أمارات السماجة والوحشية . وكانت لغته الانكليزية رديئة وركيكة (رغم كل محاولاته اختيار الكلمات حين يخاطبني) ، لكنه لم يفضل الكلام بالغيلية . ربما كان جهله باللغة الغريبة عليه هو الذي جعله يبدو أشد تخلفاً مما هو في الواقع . غير أني لم أجد عنده رغبة قوية في اسداء الخدمة لنا ، بل خوفاً شديداً .

أراد آلن ان يحمل الرجل رسالة الى جيمس إلا أن البومان رفض حمل أية رسالة شفهية قائلاً بصوته الذي يشبه الصراخ : «هي كانت ينساها» ! وأصر على حمل رسالة خطية والا نفض يده من الموضوع .

ظننت أن آلن اغتاظ كثيراً من هذا الطلب ، ولاسيما أننا كنا نفتقر الى أدوات الكتابة في تلك الأرض الجرداء ، لكنه كان رجلاً لايعدم وسيلة . فقد بحث في الغابة الى أن عثر على ريشة جناح حمامة شذبها ليجعل منها ريشة كتابة وصنع حبراً بقليل من البارود والماء واقتطع قصاصة من كتاب التخويل الفرنسي الذي يحمله معه كتعويذة تنجيه من حبل المشنقة . وجلس ليكتب الكلمات التالية :

قريبي العزيز

أرجو إرسال بعض النقود مع حامل الرسالة الى المكان الذي يعرفه هو .

ابن عمك المحب

أ . س .

وسلم الرسالة الى البومان الذي وعد بأن يسرع بها بأقصى

مايستطيع . وحملها وانطلق هابطاً .

مضت ثلاثة أيام كاملة على ذهابه ، ولكن حوالي الخامسة من مساء اليوم الثالث سمعنا صفيراً في الغابة أجاب عليه آلن وفي الحال ظهر البومان عند جانب الغدير يتلفت يميناً وشمالاً بحثاً عنا . كان اقل عبوساً من السابق ، بل كان في غاية الانشراح ، في الواقع ، لانتهائه من مهمة خطرة كهذه .

حكى لنا عن أخبار البلد ، فعلمنا انه يعج بالجنود ذوي السترالحمر : أنهم اكتشفوا مخابىء أسلحة وأن الناس المساكين يتعرضون للأذى يومياً وأن جيمس وبعض خدمه قد اعتقلوا وزج بهم في سجن قلعة وليام على أساس الشك بأن لهم ضلعاً في الجريمة . ويبدو أن هناك لغطاً في كل مكان بأن آلن بريك هو الذي اطلق النار وأن جائزة بقيمة مئة باون قد وضعت للقبض عليه وعلي .

ماكانت الامور لتسوء أكثر من ذلك . وكانت الوريقة التي جاءنا بها البومان من السيدة ستيوارت تنطق بحزن بائس .

فقد رجت فيها من آلن الا يدع نفسه يقع في قبضة السلطة مؤكدة له إن وقوعه في ايدي الجنود ذوي السترالحمر يعني الموت الأكيد له ولزوجها . وأن المال الذي ارسلته هو كل مالديها أو اقترضته ، داعية لنا بالتوفيق . وكما أرسلت لنا مع الوريقة نسخة من اعلانات الجائزة التي ذكرت فيها أوصافنا .

تأملنا هذا الاعلان بفضول شديد وبشيء من الخوف ، كمن ينظر الى مرآة وينظر الى فوهة بندقية العدو ليرى مدى دقة التصويب . فقد وصف آلن بأنه رجل ضئيل الحجم مخدش الوجه بتأثير الجدري خفيف الحركة ، في الخامسة والثلاثين أو نحوها . يلبس قبعة ذات ريش ومعطفاً فرنسياً أزرق ذا أزرار واشرطة فضية ، معفراً بالغبار والأوساخ ، وصداراً أحمر وسروالاً أسود من الصوف الخشن . ووصفني الإعلان بأني «فتى طويل القامة قوي البنية في

حوالي الثامنة عشرة ، يلبس معطفاً أزرق عتيقاً بالياً وقلنسوة جبلية وصداراً يدوياً طويلاً وسروال ركوب أزرق . عاري الساقين وينتعل حذاء جنوبياً قصيراً بلا مقدمة . وهو أمرد(*) ويتكلم مثل أهل الجنوب .

ارتاح آلن جداً لرؤية ملابسه الأنيقة توصف بهذه الدرجة من التفصيل ، الا أنه إنزعج قليلاً لعبارة «معفراً بالغبار والأوساخ» . أما أنا فقد رسم لي الاعلان صورة بائسة . لكنني ارتحت للوصف كل الارتياح . فبعدما أبدلت تلك الأسمال بثياب غيرها لم يعد الوصف يشكل خطراً علي بل اصبح مصدر طمأنينة . قلت :

ـ عليك أن تغير ثيابك ياآلن .

فقال :

ـ لا والله . لن أغيرها . منظر جميل أن أعود الى فرنسا بقلنسوة !

جعلني هذا الموضوع اراجع نفسي ثانية : لو أني انفصلت عن آلن وثيابه المفضوحة فسأكون في مأمن من الاعتقال وأمضي الى شأني دون تستر . ليس هذا وحسب . لنفترض أنهم القوا القبض علي وأنا بمفردي فلن يجدوا علي مأخذاً .

لكن لو أنهم قبضوا علي بصحبة القاتل المعروف فمصيري الى القبر لامحالة . إن دواعي الشهامة تمنعني من الافصاح عما يدور في بالي ، لكنني لم استطع الامتناع عن التفكير في الموضوع .

وراودتني الفكرة بالحاح حين أخرج البومان كيس نقود أخضر صغيراً فيه أربعة جنيهات ذهبية وأكثر من نصف جنيه من القطع المعدنية الصغيرة . صحيح أن المبلغ أكبر مما أملك ، لكن المطلوب أن يصل آلن الى فرنسا بأقل من خمسة جنيهات في حين لا استطيع الوصول الى أبعد من كوينزفيري بأقل من جنيهين ـ المبلغ الذي أملكه . وعندما تأملت المسألة وجدت أن مجتمع آلن ليس خطراً على حياتي وحسب ، بل وعبئاً على جيبي .

لكن تفكيراً من هذا النوع لم يكن ليخطر على بال رفيقي الأمين . كان مؤمناً بأنه يخدمني ويساعدني ويحميني . فماذا يتوجب علي أن أفعل سوى أن الزم الصمت وانشق غيظاً وامضي في المغامرة ؟

قال آلن ، واضعاً الكيس في جيبه :

ـ مبلغ قليل ، لكنه يكفيني . والآن أعد الي زر معطفي ياجون بريك . هذا السيد وأنا نعتزم الرحيل .

لكن البومان بحث في كيس نقوده الصوفي المعلق في حزامه على طريقة ابناء المرتفعات (رغم أنه يرتدي ملابس أهل الجنوب) وراح يدور بعينيه مستغرباً ثم قال أخيراً :

ـ هي نفسها سأضيعها . (يعني أنه يظن أنه أضاعه) .

فصاح آلن :

ـ ماذا ؟ تضيع الزر ، الذي ورثته من أبي ؟ سأقول لك ماأفكر به ياجون بريك : ما أفكر به هو أن هذا أسوأ عمل قمت به منذ أن جئت الى الدنيا .

كان آلن يتكلم واضعاً يديه على ركبتيه وعلى فمه ابتسامة لعينة ، ناظراً الى البومان بعينيه اللامعتين تلك النظرة التي تعني الأذى لأعدائه .

ربما كان البومان صادقاً ، وربما أراد الخداع ثم ، لما وجد نفسه وحيداً أمامنا في مكان مقفر من الناس ، عاد الى الصدق ضماناً للسلامة على الأقل وماهي الا لحظات حتى عثر على الزر وسلمه الى آلن . قال آلن :

ـ حسناً . هذا عمل طيب يناسب شرف آل ماك كول .

ثم التفت الي :

ـ اليك الزر ثانية وأشكرك على تحمل فراقه بعض الوقت ، كتعبير عن كل ماابديته من صداقة لي .

عاد فالتفت الى البومان مودعاً بمنتهى الحرارة قائلاً :

ـ لأنك أسديت لي خدمة كبيرة جداً ، معرضاً حياتك للخطر وسوف أناديك بـ «الرجل الطيب» دائماً .

أخيراً انصرف البومان سالكاً طريقاً ، فيما أخذنا آلن وأنا (بعدما جمعنا متاعنا معاً) طريقاً آخر مستأنفين الهرب .

(*) البومان : مربي الماشية السكوتلاندي الذي يأخذ المواشي من مالك الارض ويربيها ويقتسم مع المالك الولادات الجديدة «المؤلف» .

(*) الأمرد : الفتى الذي لم تنبت له لحية بعد .

الفصل الثاني والعشرون
(الهروب في الأحراش : المستنقعات)



بعد احدى عشرة ساعة من السفر المتواصل المضني وصلنا عند الفجر الى نهاية سلسلة من الجبال ، فوجدنا أمامنا أرضاً منخفضة وعرة جرداء كان علينا أن نعبرها .

لم يكن قد مضى وقت طويل على شروق الشمس وكان نورها الساطع يقابل عيوننا . وثمة ضباب خفيف يعلو من سطح المستنقعات كالدخان . فكان هناك (كما قال آلن) عشرون كتيبة خيالة .

لذا جلسنا في مغارة صغيرة بسفح تل منتظرين انقشاع الضباب فأعددنا طبخة حساء من دقيق الشوفان وعقدنا بعد الطعام مجلساً حربياً . قال آلن :

-ديفيد ، هذه هي المرحلة الحرجة . هل نمكث هنا الى أن يأتي الليل أم

نغامر ونمضي الى الأمام ؟

قلت :

ـ حسناً ، أنا تعبان الآن ، لكني استطيع المشي لنفس المسافة ثانية إذا دعت الضرورة .

قال آلن : ـ إي ، لكن ليست نفس المسافة . بل مازال أمامنا اكثر من نصف المسافة . الحالة بالنسبة لنا هي هكذا : آين تعني الموت لنا كلينا . الى الجنوب منها مناطق آل كامبل .. استبعدها . الى الشمال : طيب ، لافائدة من الاتجاه شمالاً ، لالك ، أنت الذي يريد الوصول الى كوينزفيري ، ولا لي أنا الذي يريد الوصول الى فرنسا . حسناً ، اذن يمكننا أن نتجه شرقاً .

فأقول بمنتهى الجذل :

ـ فليكن شرقاً !

لكني أفكر مع نفسي قائلاً : «آه ، يارجل ، ليتك أخذت إتجاهاً لعقرب البوصلة وأخذت أنا اتجاهاً آخر ، لكان هذا أحسن لنا كلينا» . قال آلن :

ـ حسناً ، اذن نتجه شرقاً . لاحظ أن أمامنا المستنقعات . إنها لعبة حظ ياديڤيد . فهناك في هذه الأرض المنبسطة الجرداء العارية أين يمكن للإنسان أن يولي وجهه ؟ إذا صعد ذوو الستر الحمر الى التلال أمكنهم أن يروك على بعد أميال . فإذا اطلقوا العنان لخيولهم وصلوا اليك في فترة قصيرة . لا ياديڤيد ، هذا ليس مكاناً أميناً . أستطيع القول إنه أسوأ في وضح النهار منه في ظلمة الليل .

قلت :

ـ آلن ، اسمع رأيي في الأمر . آين تعني الموت لكلينا . ليس عندنا مال كافف ولاطعام . إذا امتد البحث عنا فقد يتوصلون الى مكاننا . كلها مخاطرة . لك وعد مني بأنني سأمضي معك قدماً الى أن أنهار من الاعياء .

فرح آلن وقال :
- أحياناً تكون شديد الحذر والتحفظ بدرجة لاتصلح معها لأن ترافق سيداً مثلي . لكنك في بعض الاحيان تتوهج وتكشف عن معنوية عالية . في تلك اللحظات ، أحبك ياديفيد كأخ .

ارتفع الضباب وانقشع فكشف لنا عن أرض جرداء كأنها بحر لايدب فوقها شيء سوى بعض دجاج الماء وطيور العقعق ، فيما لاح في أقصى الطرف الشرقي قطيع غزلان تتحرك مثل النقاط عند الأفق . ورأينا في جانب آخر من ذلك الفضاء غابة اشجار تنوب ميتة شاخصة كأنها هياكل عظمية . صحراء كئيبة لايمكن للإنسان أن يرىٰ أرضاً أشد منها كآبة ، لكنها خالية من الجند ، وهذا مانبغيه .

على هذا الأساس نزلنا الى تلك الأرض الخراب وبدأنا نشق طريقنا المتعب اللعين صوب الطرف الشرقي . كانت قمم الجبال تحيط بنا من كل جهة (لاتنسوا ذلك) ويمكن أن يكتشف الجند وجودنا من هناك في أية لحظة ، لذا وجدنا من الأسلم أن نمشي في المناطق المنخفضة من المستنقعات ولا نبتعد عنها الا اذا اتجهت بعكس اتجاهنا . وكنا نضطر أحياناً الى الزحف لمدة نصف ساعة لكي ننتقل من دغل الى آخر ، كما يفعل الصيادون الذين يطاردون غزالاً مدة طويلة .

كان نهاراً صافياً والشمس حارقة . وسرعان مانفد الماء الذي حملناه معنا في زجاجة البراندي . لوكنت أدري أني سأزحف على بطني نصف الوقت وأمشي كل تلك المسافات منحني الظهر الى حد الزحف لما ورطت نفسي في مثل هذا المشروع المميت .

صرنا نكد فنستريح لنكد ثانية طوال فترة الصباح والضحى . وقرب الظهر اضطجعنا في دغل كثيف لننام .

أخذ آلن نوبة الحراسة الأولىٰ . وكأني لم أغمض عيني حين أيقظني لأتولى النوبة التالية . لم تكن معنا ساعة فغرس آلن قصبة صغيرة في الأرض ليستدل بها على الوقت ، حتى إذا اتجه ظل القصبة نحو الشرق

أيقظته من نومه . غير أنني كنت في تلك اللحظة متعباً الى حد أن أنام اثنتي عشرة ساعة متواصلة . كان طعم النوم مايزال في بلعومي وكانت أطرافي نائمة حتى وأنا مستيقظ . وكان لحرارة الدغل وطنين النحل البري تأثير النبيذ الساخن المسكر فكنت بين حين وآخر أهب مذعوراً لأجد أني كنت غافياً .

في المرة الأخيرة التي أفقت فيها من إغفاءتي شعرت كأني عائد من مكان بعيد وأن الشمس قطعت رحلة طويلة في السماء . نظرت الى القصبة وأوشكت أن أصرخ : فقد اكتشفت أني خنت الثقة التي وضعت في . أدرت رأسي بخوف وخجل وعندها رأيت ماجعل قلبي يتوقف عن النبض .

فقد رأيت كوكبة فرسان ، لابد أنهم جاؤوا وأنا نائم . تقترب من موضعنا منتشرة على شكل مروحة .

حين أيقظت آلن ألقى نظرة سريعة على الجنود أولاً ثم على القصبة وموقع الشمس وعقد حاجبيه بنظرة عابسة قبيحة وقلقة رأيت فيها توبيخاً لي . سألته :

ـ ماذا نفعل الآن ؟

فقال ، مشيراً الى جبل عند الأفق الشمالي الشرقي :ـ ماعلينا الا أن نقلد الأرانب . أترى ذلك الجبل ؟

قلت :

ـ نعم .

قال :

ـ حسناً ، إذن فلنتوجه اليه . إسمه (بن آلدر) . جبل أجرد موحش مليء بالتلال والمفاوز . واذا استطعنا الوصول اليه قبل مجيىء الصباح ، فقد ننجو .

صرخت :

ـ لكن ، آلن ، حتى نصل اليه لابد أن نمر من بين الجنود !

فقال :

- أدري هذا جيداً . لكن العودة الى آين تعني الموت . والآن ياديڤيد ، يارجل ، تحرك بسرعة وخفة !

قال هذا وانطلق يركض على يديه وركبتيه بسرعة لامثيل لها كما لوكانت تلك هي طريقته الطبيعية في الركض . كما لبث طوال الوقت يركض بخط ملتوٍ في المناطق المنخفضة من أرض المستنقعات حيث يمكن الاختفاء بأحسن شكل . كانت الاحراش قد أحرقت في بعض تلك المناطق فكان الرماد يضرب وجهنا (القريب من الأرض) فيعمي عيوننا ويخنق أنفاسنا . كنا في تلك الآونة قد ابتعدنا عن مياه المستنقعات الى اليابسة ، وهنا أصبح الركض زحفاً على الأيدي والركب عملاً شاقاً للغاية مرهقاً لم تعد أطرافنا معه قادرة على حملنا .

الحق أننا كنا نصادف بين الحين والحين دغلاً كبيراً فنرتمي فيه قليلاً لاهثين ثم ننظر من بين أوراق الشجر لنرى أين وصل الفرسان . فوجدنا أنهم لم ينتبهوا لوجودنا ومضوا في طريقهم ، كان عددهم يقرب من نصف كتيبة ويشغلون مساحة كيلو مترين أثناء السير .

لقد استيقظت في الوقت المناسب ولو كنت تأخرت قليلاً لكانوا رأونا ونحن نهرب . لم نطمئن تماماً فقد ينقلب الحظ علينا في آخر لحظة . فكنا اذا فزع أحد طيور الماء وخفق بجناحيه طائراً ارتمينا أرضاً ساكنين سكون الاموات خائفين من مجرد التنفس .

سرعان مابلغ بي الارهاق البدني من خفقان القلب وخدوش اليدين وجفاف الحنجرة والتهاب العينين بفعل الغبار والرماد ، حداً لا يطاق جعلني أفضل التوقف لكن خوفي من آلن وحده أعطاني نوعاً كاذباً من الجرأة والصمود . أما هو (وتذكروا أنه كان مقيداً بمعطفه الثقيل) فقد احمر وجهه أول الأمر ولكن الشحوب صار يحل تدريجياً وصار تنفسه مثل الشخير وصوته ، وهو يهمس في اذني ملاحظاته ، لايشبه أصوات البشر . ومع ذلك ظلت معنوياته عالية ولم يبد عليه أي تخاذل أويأس مما

جعلني امتلىء إعجاباً بصبره وقدرته على الاحتمال .

أخيراً ، مع أولى بشائر الغروب سمعنا صوت بوق ، فلما نظرنا من بين أوراق الدغل رأينا الجنود آخذين بالتجمع . وماهي الا دقائق حتى اشعلوا ناراً وعسكروا لقضاء الليلة في موضع يتوسط المستنقعات والأحراش .

عندئذ رجوت آلن واستعطفته أن يتركنا في مكاننا لنستريح وننام فقال :

ـ لا نوم الليلة ! هؤلاء الخيالة سيحيطون بمنطقة المستنقعات من الآن فصاعداً فلا يقدر على الافلات من آبن سوى الطير . لقد أفلتنا في الوقت المناسب فهل نغامر بما كسبناه ؟ لا ، لا . عندما يأتي صباح الغد نكون ، أنت وأنا ، في مكان أمين على جبل بن آلدر .

قلت : ـ آلن . أنا لاتعوزني الارادة . ان ماأريده هي القوة . لو كنت أقدر لما ترددت ، ولكني متأكد بأني لا أقدر تأكدي من أني لا أزال حياً .

قال آلن :

ـ حسناً . إذن سأحملك .

نظرت إليه لأرى إن كان يمزح فقرأت كل الصدق على وجهه . وجعلتني رؤية تلك العزيمة أشعر بالخجل فقلت :

ـ تقدم ! سأتبعك .

فنظر الي كأنه يقول : «أحسنت ياديڤيد !» وانطلق ثانية بأقصى سرعة .

بدأ الجو يبرد ثم يظلم (ولكن ليس بالدرجة الكافية) .

كانت السماء صافية . كنا مانزال في أوائل تموز . صحيح أننا كلما تقدمنا نحو الشمال زادت الحاجة الى نظر قوي ليستطيع المرء أن يقرأ في ليلة شديدة الظلمة كهذه ، لكني وجدت الظلمة تلك أخف من ظلمة منتصف نهار يوم شتوي .

وهبط ندى غزير فوق المستنقعات كالمطر فأنعشني قليلاً .
وعندما توقفنا لنلتقط أنفاسنا وسنحت لي الفرصة لأن أتطلع من حولي : كانت السماء صافية والجو رائقاً وبدت أطياف التلال مثل أجساد نائمة وبصيص النار مثل بقعة ضوء في وسط المستنقعات شعرت بالغضب يأخذ بخناقي لأني لا أملك الا أن أستمر في الزحف المؤلم ملتهماً الغبار مثل الديدان .

لم أفكر في تلك اللحظات بالماضي أو المستقبل ولم يكن يخطر على بالي أن هناك فتى اسمه (ديفيد بالفور) .

أفكر بنفسي ، بل بكل خطوة قادمة ، ممتلىء النفس يأساً ، شاعراً بأنها خطوتي الأخيرة بالتأكيد ، وناقماً على آلن لأنه سبب هذه المعاناة . كان آلن عسكرياً بحق :

فدور الضابط أن يجعل رجاله يمضون في تنفيذ الأوامر .

إنهم لايعرفون أين ومتى يأتيهم الإيعاز ، بل عليهم أن ينطرحوا أرضاً حيث هم ويقتلوا . ويمكنني القول إني أصلح لأن أكون جندياً مطيعاً ، وذلك أني لم أملك خلال الساعات الأخيرة تلك أي خيار سوى أن أطيع مادمت قادراً على الطاعة وأموت طاعة .

خلت أن سنوات انقضت قبل ان يطلع النهار . كنا حينذاك قد تجاوزنا الخطر الاكبر وصار بمستطاعنا أن نمشي على أقدامنا مثل البشر لا أن نزحف على أطرافنا الأربعة مثل الدواب . ولكن رحماك يارب ! أي رجلين كنا ، نمشي مثل عجوزين طاعنين في السن ، ونتعثر في مشينا مثل طفلين رضيعين ، والوجه منا شاحب شحوب الموت ! لم نتبادل كلمة واحدة ، بل أطبق كل منا فمه وركز نظره الى الأمام وصار يرفع قدماً وينزلها الى الأرض ثانية مثل أناس يرفعون أثقالاً في الالعاب الشعبية(*) وكانت طيور الماء تمر فوق رؤوسنا صائحة بين حين وآخر ، وخيوط الفجر ترتفع من ناحية الشرق ببطء .

أقول إن آلن كان يتصرف مثلي ، لا لأني كنت أنظر إليه وأنا لا أكاد

أقوى على جر قدمي ، بل لأنه لم يكن أقل مني إعياء بالتأكيد وكان ، هو الآخر ، يدرس الطريق والا كنا وقعنا في كمين مثل العميان .

وكنا نسير في غور كثيف الأحراش ، يتقدمني آلن وأنا اقتفي خطواته مثل سرطان تتبعه أنثاه ، حين سمعنا خشخشة . وفجأة انشقت الأحراش وقفز منها ثلاثة رجال أو أربعة بثياب بالية ، وماهي الا ثوان حتى وجدنا نفسنا مطروحين أرضاً وخنجر على رقبة كل منا .

لا أظنني تأذيت من تلك الضربة المباغتة . فالآلام التي كنت أعاني منها لم تفسح المجال للآلام الجديدة . بل فرحت للتوقف عن المشي ، غير خائف من الخنجر . لبثت أنظر الى وجه الرجل الرابض على صدري . أذكر أن وجهه أحرقته الشمس وأن عينيه صافيتان للغاية وأني لم أخف منه . وسمعت آلن وأحد الرجال يتهامسان باللغة الغيلية فلم أفهم شيئاً مما يقولان .

ثم سحبت الخناجر ، وجردونا من أسلحتنا وأجلسونا وجهاً لوجه تحت الحراسة . قال آلن :

- هؤلاء رجال [كلاني] . لن نجد أفضل منهم الآن . علينا أن نمكث هنا مع هؤلاء من نقاط المراقبة الخارجية إلى أن يبلغوا زعيمهم بوصولي .

إن [كلاني ماكفرسن] ، زعيم عشيرة (ڤوريتش) ، هو أحد زعماء الثورة الكبرى التي اندلعت قبل ست سنوات . كان هناك ثمن لرأسه وكنت أظنه لجأ الى فرنسا منذ وقت طويل مع زعماء الثورة الآخرين . أيقظتني تلك المفاجئة واخرجتني من اعيائي . صرخت :

- ماذا ؟ كلاني مايزال هنا ؟

أجاب آلن:

- إي ، هو كذلك مايزال في بلده وبين أبناء عشيرته . الملك جورج لايقدر على إيذائه .

أعتقد بأني كنت سأطرح المزيد من الاسئلة ، الا أن آلن أسكتني قائلاً :

- أنا تعبان وأريد أن أنام ومن غير أن يضيف كلمة واحدة انقلب على وجهه بين شجيرات دغل كثيف ونام في الحال .

أما بالنسبة لي فمثل هذا النوم مستحيل . هل سمعتم طنين الجنادب بين الحشائش في الصيف ؟ حسناً . ما أن أغمضت عيني حتى شعرت كأن جسمي ، وخصوصاً رأسي ، وبطني وذراعي قد امتلأت بآلاف الجنادب الطنانة . فكان علي أن أفتح عيني حالاً وارتجف وأهتز واستوي جالساً ثم أتمدد ثانية . واتطلع الى السماء فتبهر عيني ، وانظر الى رجال كلاني الوسخين المتوحشين الذين كانوا يراقبون أعالي الغور ويثرثرون باللغة الغيلية .

كانت تلك كل الراحة التي تمتعت بها حتى عودة الرسول الذي افاد بأن كلاني سيكون مسروراً لإستقبالنا وأن علينا القيام والذهاب فوراً . كان آلن في حالة مزاجية ممتازة . فقد استعاد الكثير من حيويته بفضل النوم وشعر بجوع شديد وبات يتلهف لجرعة النبيذ وصحن اللحم المطبوخ اللذين كانا في إنتظاره كما أخبره بذلك الرسول .

بينما شعرت أنا بالغثيان من حديث الطعام . كنت من قبل أحس بثقل كأني جثة هامدة ، أما الآن فصرت أشعر بنوع من الخفة الفظيعة فلم أعد أعاني من المشي . جرفني الهواء مثل نسيج عنكبوت ، وبدت الارض لي كالسحاب والجبال بخفة الريش وأنا طائر في الهواء يتلاعب بي ويقذف بي صعوداً نزولاً . تملكني عندئذ رعب شديد من اليأس حتى أوشكت أن أبكي من شدة القنوط .

رأيت آلن يعبس في وجهي وأظنه غاضباً فلامس قلبي خيط من خوف كخوف الاطفال . أذكر أيضاً أني ابتسمت ولم استطع التوقف عن الإبتسام رغم كل محاولاتي أحسست بأن الإبتسام غير مناسب في تلك الساعة ، لكن رفيقي الطيب ماكان يحمل في قلبه نحوي سوى الطيبة والرأفة .

في اللحظة التالية حملني اثنان من رجال كلاني من تحت ذراعيّ ،

وشعرت بأنهما يركضان بي بسرعة هائلة (هكذا تصورت ولو أنهما كانا يجراني ببطء شديد في الحقيقة) عبرتيه من الأغوار والكهوف والفجوات الموحشة الى قلب جبل بن آلدر المخيف .

وهنا سكت . قلت :

ـ أجل ، إذا خسروا رددت اليهم نقودهم . واذا ربحوا تركتهم يأخذون مايربحونه ويذهبون ! قلت من قبل إني أقدر كرمك . أما بالنسبة لي ياسيدي فصعب على نفسي أن أوضع في هذا الموضع .

ساد صمت قصير بدافيه كلاني ، كالعادة ، كأنه يوشك أن يقول شيئاً غير أنه لم يقل كلمة ، إنما ازداد وجهه احمراراً على احمرار .

قلت :

ـ أنا صغير السن وأسألك النصيحة . إنصحني كأني ولدك . صديقي خسر هذه النقود بعدما ربح منك أضعاف هذا المبلغ . هل يمكنني أن أقبل بإعادتها الي ؟ أيصح هذا لو كنت أنا لعبت ؟ مهما يكن رأيك في ، لعلك ترى كم هذا صعب على رجل عنده كبرياء .

قال كلاني :

ـ صعب علي أيضاًيامستر بالفور وأنت تنظر الي كأني رجل أوقع أناساً مساكين في فخ . أنا لا أرضى بأن يتلقى أصدقائي القادمون الى أي بيت من بيوتي أية أهانات .

ثم صرخ في نوبة غضب مفاجئة :

ـ ولا بتوجيه إهانة اليهم !

فقلت :

ـ وهكذا ترى ياسيدي أني محق بعض الشيء في ماقلت . وهذا القمار لايناسب السادة المحترمين . إنما أنا لا أزال انتظر رأيك .

أنا واثق من أن كلاني لم يكره إنساناً بقدر كرهه لديڤيد بالفور . فقد استعرضني بنظرة استفزازية ورأيت بوادر التحدي على شفتيه . لكن صغر سني هو الذي منعه ، أو ربما حس العدالة

عنده . كانت لحظات مخيفة للجميع بضمنهم كلاني الذي كان موقفه آنذاك جديراً بالإحترام .

قال :

- مستر بالفور ، أعتقد ، بأنك مستقيم ومتزمت أكثر من اللازم ، لكنك رغم هذا تحمل روحية سيد لطيف .

قسماً بشرفي لك أن تأخذ هذه النقود . هذا ماكنت سأقوله لولدي.. وهاك يدي أيضاً لنتصافح!

(*) سوق القرية السنوية حيث يكون سوقاً ومهرجاناً للألعاب والمباريات .

الفصل الثالث والعشرون
(قفص كلاني)



وصلنا أخيراً الى سفح غابة شديد الانحدار يرتفع في وعورة الى قمة عارية تفضي من الجهة الأخرى الى هاوية سحيقة . قال أحد الادلاء :

ـ هناك .

وبدأنا التسلق . كانت الاشجار متشبثة بتربة السفح ، مثل بحارة متمسكين بحبال سفينة ، وكانت جذوعها مستديرة مثل أعمدة السلالم الخشبية التي رحنا نتسلقها .

على القمة المكسوة بخضرة كثيفة ، وعلى مقربة من حافة الهاوية وجدنا البيت الغريب الذي يعرف في البلد باسم (قفص كلاني) . كان بيتاً من جذوع الاشجار محصناً من الأمام بسياج من جذوع

متصالبة ، فيما اعتمد سقفه على شجرة نمت من السفح . وسويت الأرض من وراء هذا الحصن لتكون باحة . وصنعت الجدران من نسيج القصب و الأعشاب الطويلة وكانت مغطاة بالأعشاب الندية والطحالب .

كان البيت بيضوي الشكل ، نصفه مرتكز على القمة و نصف غارق في الدخل الكثيف الذي يغطي السفح ، فكأنه خلية نحل في شجيرة زعرور بري خضراء .

كان من الداخل واسعاً بما يكفي لإيواء خمسة أشخاص أو ستة بارتياح . وقد حفر موقد في نتوء صخري وقد سخم الدخان الأجزاء العليا من الصخر .

ذلك كان واحداً من مخابىء كلاني التي من بينها كهوف وأقبية تحت الأرض في أماكن مختلفة من البلاد . وكان يتنقل بين هذه المخابىء تبعاً للمعلومات التي ترده من كشافيه عن تحركات الجنود . بهذه الطريقة وبفضل حب أبناء عشيرته ظل في مأمن من الخطر في حين انتهى العديد من الزعماء الآخرين الى الفرار أو القتل أو السجن . واكثر من هذا أنه استمر أربع سنوات أو خمساً أخرى سالماً ولم يذهب الى فرنسا في نهاية الأمر إلا بعد تلقيه أمراً صريحاً بذلك من سيده . وسرعان ماتوفي هناك . ومن يدري فلربما تذكر قفصه على قمة (بن آلدر) قبل موته وأسف لمغادرته .

حين بلغنا الباب رأيناه جالساً بجوار الموقد يراقب أحد أتباعه وهو يطبخ بعض الطعام . كان بسيط الثياب الى حد كبير ويضع على رأسه قلنسوة نوم صوفية طويلة يدخن غليوناً قصيراً رديء الصنع ورغم كل هذا كانت له هيبة الملوك وما أروع المنظر وهو ينهض من مكانه ليستقبلنا .

قال :

- حسناً يامستر ستيوارت ، أدخل ياسيدي وهات صديقك الذي لم

أعرف اسمه بعد .

قال آلن :

ـ وكيف حالك أنت ياكلاني ؟ أرجو أن تكون الأمور على مايرام ياسيدي . أنا فخور برؤيتك بأن أقدم لك صديقي لورد شوز ، المستر ديڤيد بالفور .

لم يكن آلن يذكر لقبي دون رنة سخرية ، حين نكون بمفردنا ، أما بحضور الغرباء فكان يذكر اسمي ولقبي بكل تعظيم . يقول كلاني :

ـ ادخلا كلاكما ، ياسادة . أرحب بكما في بيتي ، هذا المكان البائس الغريب بالتأكيد ، لكنه المكان الذي استقبلت به شخصية ملكية ـ مستر ستيوارت أنت تعرف بلا ريب الشخصية الملكية التي أعنيها . سنشرب نخب الحظ . وحال ماينتهي هذا الخادم الأبتر من اعداد الطعام نأكل ثم نلعب الورق قليلاً كما يفعل السادة .

ثم يقول وهو يصب البراندي :

ـ حياتي جافة بعض الشيء . أعيش شبه وحيد ، جالساً أ فرك أصابعي وأفكر بالأيام العظيمة التي مضت وأحلم بأيام أخرى عظيمة قادمة . إذن فلنشرب نخب «استرجاع التاج» !

فقرعنا الكؤوس وشربنا . أنا واثق من أني ماكنت أحمل ضغينة تجاه الملك جورج ، ولو كان حاضراً هناك بشخصه لكان فعل نفس مافعلت . وما أن شربت كأس الخمر حتى شعرت بتحسن كبير وصرت قادراً على النظر والاستماع ، ربما بشيء من عدم التركيز ، ولكن بنفس حالة الرعب واليأس التي كانت مسيطرة على تفكيري من قبل .

كان مكاناً غريباً بلاشك وسيده شخص غريب . لقد جعل طول الاختباء من كلاني رجلاً يميل الى نسق ثابت من العادات مثل خادمة عجوز . فكان يجلس في مكان معين لايحق لأحد غيره الجلوس

فيه . ورتب القفص بطريقة معينة لا يسمح لأحد بتغييرها . وكان الطبخ واحداً من مشاغله الرئيسية ، فكانت عينه على قدر الطبخ حتى وهو ينهض لاستقبالنا .

ويظهر إنه كان من حين لآخر يزور أو يستقبل زوجته وواحداً أو اثنين من أصدقائه المقربين ، تحت جنح الظلام . لكنه كان يقضي أغلب الوقت وحيداً لايتحدث سوى مع حراسه واتباعه وخدمه المقيمين في القفص . وكان أول القادمين اليه في الصباح حلاقه ، الذي يحلق له لحيته ويوافيه بأخبار البلد التي يتلهف لسماعها . كانت أسئلته لاتنتهي ، يطرحها على الحلاق بلهفة الطفل . وكان يضحك لبعض الأجوبة بأعلى صوته . ويأخذ بالضحك حين يتذكرها بعد ساعات من ذهاب الحلاق .

لاشك أنه كان يسعى بأسئلته الى غاية . صحيح أن «قانون البرلمان» الأخير صادر أملاكه وجرده من كل سلطاته كغيره من النبلاء وملاك الأراضي السكوتلانديين ،الا أن كلاني ظل يمارس سلطات أبوية على أبناء قبيلته .

فكانت الخلافات والمشاكل بينهم تعرض عليه وهو في مخبئه ليقضي بها . وكان أبناء قومه ، الذين ينظرون باحتقار الى المحكمة العليا ، يتناسون خلافاتهم ويقدمون الأموال لهذا الخارج على القانون المطارد المجرد من امتيازاته باشارة صغيرة من اصبعه . وكان اذا غضب ـ وكثيراً مايغضب ـ أصدر أوامر وهدد بفرض العقوبات ، مثل أي ملك ، فيرتجف أتباعه وخدمه أمامه وينحنون له خوفاً مثل أطفال أمام أب سريع الغضب . وكان اذا جاء للحكم في خلاف يصافح الطرفين بطريقة رسمية فيرفع أفراد الطرفين أيديهم الى قلانسهم في تحية عسكرية .

لقد أتيحت لي فرصة طيبة لرؤية بعض دخائل حياة قبيلة جبلية ـ رأيت زعيماً محكوماً عليه بالموت مطارداً ، أرضه محتلة والجنود

يبحثون عنه في كل مكان ويتجولون أحياناً على بعد ميل من مخبئه ، ورأيت كيف أن أي واحد من أتباعه المعدمين المشردين ، الذين كان يشتمهم ويهددهم ، كان يمكن أن يكسب ثروة لوخان سيده .

في اليوم الأول ذاك قام كلاني فعصر ليمونة على طبيخ اللحم بيده (كانت لذائذ العيش تأتيه بانتظام) ودعانا الى تناول الطعام . قال ، قاصداً الطبيخ : ـ

ـ هو مثل الطعام الذي قدمته لسموه الملكي في هذا البيت نفسه ، إنما لم يكن لدينا عصير ليمون . كنا محظوظين اذا حصلنا على اللحم ولم نكن نحلم بالمطيبات . الحقيقة كان جنود الملك اكثر عدداً من الليمون في بلدي في عام «ستة واربعين(*)» .

لا أدري إن كانت قطع اللحم جيدة الطبخ أم لا ، لكن نفسي نفرت من رؤيتها ولم آكل سوى القليل . ولبث كلاني طوال الوقت يروي لنا الحكايات عن مكوث الأمير تشارلي في القفص ، ذاكراً لنا مادار من أحاديث بالحرف الواحد ، ناهضاً من مكانه ليرينا أين وقف الأمير ومرافقوه . فاستخلصت من حديثه أن الأمير فتى مهيب الشكل طافح بالحيوية ، مثل أي ولد من سلالة ملوك فضلاء ، ولكنه ليس حكيماً كسليمان . واستنتجت أنه كان سكراناً طوال وجوده في القفص . فكانت لعنة الإدمان التي حطمته ، كما يذكر كل المؤرخين ، قد بدأت تظهر عليه في تلك الأثناء .

ما أن انتهينا من تناول الطعام حتى اخرج كلاني دستة ورق لعب بالية علاها الزيت والوسخ من فرط الاستعمال كتلك التي تجدها في الخانات الحقيرة . والتمعت عيناه سروراً وهو يدعونا الى اللعب .

كان ذلك واحداً من الأمور التي قدر لي أن اتجنبها مثل العار . وكان من رأي أبي أن قضاء الانسان حياته في اصطياد مايكسبه الناس باستخدام هذه الأوراق المصبوغة يتنافى مع الروح المسيحية والأخلاق الفاضلة . ولاشك ان اعتذاري عن المشاركة في اللعب

بسبب الإرهاق كان مقبولاً . ربما أحمر وجهي خجلاً ساعتها ، الا أني لا أملك الحق في الحكم على الآخرين . أما بالنسبة لي فالمسألة تبدو لي غير مفهومة :

توقف كلاني عن خلط الورق وقال :

ـ مامعنى هذا بحق الشيطان ؟ أي لغو انكليزي هذا في بيت كلاني ماك فيرسن ؟

فقال آلن :

ـ أنا أقسم بدمي دفاعاً عن المستر بالفور . إنه سيد شريف ومؤدب . ولاتنس أني أقول لك هذا .

وأضاف وهو ينصب قبعته على رأسه :

ـ أنا أحمل اسم ملك ، وليس أفضل منا أصحاباً ، أنا وكل من أدعوه صديقاً . كل ما في الأمر أن السيد تعبان ويجب أن ينام . واذا لم يرق له لعب الورق فهذا لايمنعنا ، أنت وأنا ،من اللعب . وأنا مستعد لأن الاعبك أية لعبة تريد .

فقال كلاني :

ـ أريدك أن تعرف ياسيدي أن ضيوفي ، في بيتي الفقير هذا ، أحرار في أن يفعلوا مايحلولهم . فإذا أراد صديقك الوقوف على رأسه فليتفضل . واذا لم يرق ماأقوله له أو لك أو لأي رجل آخر فسيكون من دواعي الكبرياء أن أدعوه الى المبارزة .

لم أكن أريد لهذين الصديقين أن يتقاتلا بسببي فقلت :

ـ سيدي ، أني في غاية التعب كما يقول آلن . واكثر من هذا ، وأنت رجل لابد عندك أبناء وتعرف معنى البنوة ، أقول لك إني وعدت والدي .

فقال كلاني :

ـ كفى ، كفى .

وأشار الى فراش من القش والأغصان في أحد أركان القفص .

وقد بلغ من شدة الاستياء أن نظر الي شزراً وراح يدمدم . ولابد من الاعتراف بأن أعذاري وطريقتي في الكلام كانت أشبه بموعظة لامحل لها بين أولئك اليعاقبة الجبليين القساة .

أحسست بثقل غريب من جراء البراندي ولحم الغزال وماكدت أستلقي على الفراش حتى رحت في مايشبه الغيبوبة لازمتني أغلب الوقت الذي قضيناه في القفص . كنت أمر أحياناً بحالات وعي تام فأفهم كل مايقال . وكنت أحياناً اسمع مجرد كلام أو أصوات شخير وكأني اسمع خرير الماء في جدول صغير . وأرى العباءات الصوفية المخططة المعلقة على الجدران تنكمش تارة وتتسع تارة أخرىٰ مثل ظلال لهيب النار المتراقصة المنعكسة على السقف . لابد أني هذيت أو صرخت ، إذ اذكر أني كنت أستغرب حين يجيبونني بين حين وآخر . ومع ذلك لا أذكر أني رأيت أي كابوس ، بل كنت أعاني رعباً أسود خانقاً ، رعباً من المكان الذي كنت فيه والفراش الذي أضطجع فيه والعباءات المعلقة على الجدران والاصوات والنار ومن نفسي .

أرسل في طلب الحلاق ، الذي كان طبيب القبيلة أيضاً ، ليصف لي علاجاً . ولما كان يتكلم بالغيلية لم أفهم كلمة واحدة مما قال . وكنت من شدة المرض ماجعلني لاأطلب ترجمة لكلامه . كل الذي كنت أعرفه أني مريض وكان ذلك كل الذي يهمني في تلك اللحظة .

لم أهتم بمايدور وأنا مطروح على الفراش البائس ، إنما لاحظت أن آلن وكلاني كانا يقضيان أغلب الوقت في لعب الورق . وأعتقد أن آلن كسب في البداية ، فأذكر مرة أني استويت جالساً فرأيت الاثنين مستغرقين باللعب ورأيت كوماً من الذهب ، يلمع على منضدة القمار ، قد يبلغ ستين جنيهاً أو مئة . وعجبت لرؤية ثروة كبيرةكهذه في كوخ على حافة هاوية محاطٍ بأشجار كثيفة . وشعرت بأن آلن ، وان كان كاسباً حتى تلك اللحظة ، إنما يخاطر في مقامرة كبيرة

لايملك لهاسوى كيس فقير فيه خمسة جنيهات فقط .

الظاهر أن الحظ انقلب في اليوم الثاني . أيقظوني قرب الظهر لتناول الغداء كالعادة ، ورفضت تناول الطعام كالعادة وسقوني جرعة من الخمر أضيف اليها دواء مر بتوجيه من الحلاق . كان نور الشمس يصب في داخل القفص ، من خلال الباب المفتوح ، بشكل بهر عيني وأزعجني .

كان كلاني جالساً الى المنضدة يعبث بورق اللعب ، بينما وقف آلن فوق رأسي ووجهه قريب من عيني ، فبدا لي كبيراً جداً بتأثير الحمى . سألني أن أقرضه بعض المال . قلت :

ـ لأي غرض ؟

فأجاب :

ـ آه ، مجرد قرض .

فكررت السؤال :

ـ لكن لماذا ؟ لا أرى سبباً .

فقال آلن :

ـ اللعنة ياديڤيد ! لا أظنك تبخل علي بقرض ؟

ماكنت لأقرضه مالاً لو كنت متمالكاً وعيي ، لكن كل الذي شغل بالي في تلك اللحظة هو أن أبعد وجهه عني ، ولذا ناولته نقودي .

في صباح اليوم الثالث ، أي بعد ثمان وأربعين ساعة من المكوث في القفص ، استيقظت منتعش الروح ، صحيح أني كنت في منتهى الضعف والاعياء ، الا اني استعدت وعيي وقدرتي على رؤية الاشياء بحجمها وشكلها الطبيعيين الاعتياديين . الأكثر من هذا اني صرت أشتهي الطعام ، بل ونهضت من فراشي دون عون من أحد وخرجت الى الغابة .

كان يوماً غائماً والهواء خفيفاً بارداً . قضيت صباح اليوم كله أحلم لايعكر صفوي سوى مجيء رجال استطلاع كلاني وخدمه

حاملين الأخبار والتجهيزات والمؤن . فقد كان الساحل خالياً من الرقابة آنذاك وكان كلاني يتصرف بعلانية دون خوف .

حين عدت ، وجدت أنهما ، هو وآلن ، قد وضعا ورق اللعب جانباً وراحا يستجوبان أحد رجال الاستطلاع ، في تلك اللحظة التفت الزعيم الي وتحدث بالغيلية فقلت .

ـ أنا لا أعرف الغيلية ياسيدي .

لقد صار كل ما أقوله أو أفعله يضايق كلاني منذ قضية لعب الورق . قال بانفعال :

ـ اسمك أعقل منك ، لأنه اسم غيلي جيد . لكن المسألة هي أن رجال استطلاعي يقولون إن الفرصة مواتية في الجنوب ، فهل لديك قوة للذهاب ؟

رأيت ورق القمار على الطاولة ، أما الجنيهات الذهبية فلا . بل رأيت كومة من قصاصات الورق المكتوبة على جانب كلاني من الطاولة . وكان آلن عابس الوجه مثل شخص غير راضٍ عن نتيجة ما ، فبدأ الشك يساورني . قلت وأنا أنظر الى آلن :

ـ لا أدري إن كنت قد تعافيت بدرجة كافية ، لكن علينا أن ندبر أمور رحلتنا الطويلة بالمال القليل الذي نملكه .

فعض آلن على شفته السفلىٰ وأطرق برأسه ثم قال أخيراً :

ـ آلن .. لقد خسرت النقود . هذه هي الحقيقة .

سألته :

ـ نقودي أيضاً ؟

ـ فيجيب متوجعاً :

ـ نقودك أيضاً . ماكان عليك أن تعطيني النقود . أنا مجنون بلعب الورق

فقال كلاني :

ـ صبراً ! صبراً ! المسألة كلها حماقة . سخف .

ستستعيد نقودك بالطبع، بل ضعف المبلغ إذا رفعت الكلفة معي. أمر غير معقول بالنسبة لي أن آخذ نقودك. فليس المفروض بي أن أكون حجر عثرة في طريق سيدين بوضعكما. شيء غير معقول!

وبدأ يخرج القطع الذهبية من جيبه ملتهب الوجه. لم يقل آلن شيئاً، ظل مطرقاً الى الأرض. قلت:

ـ هل لا تفضلت معي الى الباب ياسيدي؟

فقال كلاني:

ـ بكل سرور.

وتبعني في الحال، لكنه كان منزعجاً حانقاً. قلت:

ـ والآن ياسيدي لابد لي من الاعتراف بكرمك.

فصرخ كلاني:

ـ هراء الهراء! أين الكرم؟ هذا مجرد سوء حظ شديد. ماذا كنت تنتظر مني أن أفعل ـ وأنا محصور في قفصي الصغير هذا ـ مجرد استدراج أصدقائي الى لعب الورق لأسلبهم نقودهم؟ واذا خسروا وهذا ليس مجرد افتراض بالطبع...

(*) أي عام ١٧٤٦ / بعد فشل ثورة الأمير تشارلي الجميل على ملك انكلترا.

الفصل الرابع والعشرون
(الهروب في الأحراش : الشجار)



عبروا بنا ، تحت جنح الظلام ، الى الشاطىء المقابل من بحيرة إيروكت . ومن هناك مضينا على ، امتداد شاطئها الشرقي ،الى مخبأ آخر قرب مدخل بحيرة رانوك ، يقودنا واحد من رجال قفص كلاني . حمل هذا الرجل امتعتنا ومعطف آلن الثقيل وراح يمشي بخفة تحت هذا الحمل الثقيل الذي لوكنت أنا أحمل نصفه لطرحني أرضاً مثل مهر جبلي لين الأطراف . ومع ذلك فقد كان الرجل بمقاييس اللياقة البدنية نحيفاً حتى ليمكنني كسره على ركبتي !

لاشك أن السير من غير أمتعة أمر مريح . ولولا هذه الراحة وماترتب من شعور بالحرية وخفة المشي ماكنت استطعت السير كل تلك المسافة . شعرت كأني ولدت من جديد وأنا أنهض من فراش

المرض . ولم يكن أحب الى قلبي في تلك الآونة من المشي ، من السفر حتى في أشد بوادي سكوتلانده وحشة وتحت سماء ملبدة بالغيوم وقلوب غير صافية تماماً ، كما هي الحال معنا آنذاك .

لبثنا صامتين فترة طويلة ، نسير جنباً الى جنب حيناً وتباعاً حيناً آخر ، وعلى وجه كل منا ملامح مختلفة : أنا بادي الغضب والكبرياء ، مستمداً كل قوة ممكنة من هذين الشعورين العنيفين الآثمين :

كان آلن خجلاً وغاضباً . خجلاً لأنه أضاع نقودي وغاضباً لأني زعلت .

كانت فكرة الافتراق تلح على تفكيري . وكلما وجدت هوى أكثر في نفسي زاد شعوري بالخجل من تفكيري . ساعتها تمنيت أن يلتفت الي آلن ويقول : «إرحل عني . حياتي أنا في خطر وبقاؤك معي يعرضك للهلاك» . أما أن ألتفت أنا للصديق الذي احبني حقاً واقول له : «أنت تطاردك الأخطار بينما أنا لا أخشى شيئاً . صداقتك عبء علي . إذهب وخاطر بحياتك وتحمل متاعبك بمفردك» . لا ، مستحيل . حتى التفكير بمثل هذا الموقف مع نفسي جعلني أحمر خجلاً .

مع ذلك ، فقد تصرف آلن مثل الأطفال (وأسوأ من هذا) مثل طفل أرعن . فخدعني وأخذ مني نقودي وأنا أكاد اكون غائباً عن الوعي ، ولم يكن عمله ذاك أقل سوء من السرقة وهاهو يسير الى جنبي خالي الجيب من القرش الواحد ، سعيداً لأنه تطفل على نقودي التي أجبرني على استرجاعها عن طريق الاستجداء . صحيح أني كنت مستعدا لاقتسام ما معي من نقود معه ، لكن الذي أغضبني هو أن يعتبر استعدادي أمراً مفروغاً منه .

هذان كانا الأمرين اللذين يشغلان بالي وماكنت أستطيع أن أتحدث في أي منهما من غير إساءة الى صديقي . فضلت أن أفعل

ماهو أقل سوء ، أن أعتصم بالصمت . ولم أفعل سوى اختلاس نظرة الى صاحبي من طرف عيني. أخيراً ، بعدما عبرنا الى الجانب الآخر من بحيرة (إيروكت) ، ورحنا نسير على أرض منبسطة لينة ، لم يعد يحتمل السكوت فاقترب مني وقال :

- ديڤيد ، ماهكذا يتعامل الأصدقاء في مسألة صغيرة . علي أن أعتذر وها أنذا أعتذر . فاذا كان في نفسك شيء فالأفضل أن تقوله .

فقلت :

- أوه ، لاشيء .

بدا خائباً ففرحت لذلك فرحاً لئيماً . قال بصوت مرتعش :

- لا . ولكن حين أقول لك إني أستحق اللوم ؟

فقلت ببرود :

- عجباً . أنت تستحق اللوم بالطبع . وأنت تدري أنني لم أوبخك قط .

فيجيب :

- أبداً . لكنك تعرف جيداً أنك فعلت ماهو أسوأ . أتريد أن نفترق ؟ قلتها من قبل . هل ستقولها ثانية ؟ الجبال والاحراش كثيرة من هنا الى حتى (البحرين)(*) ياديڤيد ... وصدقني أني لا أميل كثيراً الى البقاء حيث لايريدني الآخرون .

طعنتني كلماته كالسيف وكشفت عن نكراني للجميل فصحت :

- آلن بريك !

ثم قلت :

- أتظنني شخصاً يدير لك ظهره ساعة حاجتك ؟ إياك أن تقول هذا أمامي . سلوكي كله يثبت أن هذا كذب . صحيح أن النعاس غلبني في المستنقعات ، لكن ذلك بسبب الإرهاق فلا تعيرني بذلك .

فقال آلن :

- هذا مالم أفعله أبداً .

مضيت أقول :

ـ لكن دعنا من هذا . ماذا فعلت حتى تساويني بالكلاب بافتراضاتك هذه ؟ أنا لم أخيب ظن صديق أبداً ومن المستبعد أن أفعل هذا معك . بيننا حقوق لايمكن أن أنساها أبداً ، حتى لو أمكنك أنت .

فقال آلن بهدوء شديد :

ـ سأقول لك فقط ياديڤيد أني كنت وما أزال مديناً لك بحياتي . والآن أنا مدين لك بالمال حاول أن تخفف علي ثقل هذا العبء .

كان المفروض أن تكسر تلك الكلمات حدة غضبي ، وخاصة بالطريقة التي قيلت بها . إنما الذي حصل هو العكس . فقد إشتد غضبي ، لا على آلن ، بل على نفسي . فقد زادني شعوري بسوء تصرفي غضباً وقسوة .

قلت :

ـ طلبت مني أن أتكلم . حسناً ، إذن سأفعل .

أنت تعترف بأنك أسأت لي . كان علي أن أبتلع إهانة .

لم أوبخك قط . لم أصف فعلتك الى أن وصفتها أنت بنفسك . وها أنت تلومني الآن .

ثم صحت :

ـ لأني لم أضحك وأرقص طرباً لتلقي الاهانات . المطلوب مني أن أسجد لك وأشكرك على الاهانات . فكر بالآخرين ياآلن بريك . لو فكرت بغيرك فربما تقلل الكلام عن نفسك .

وعندما يتجاوز صديقك الذي يحبك كثيراً عن إساءة دون أن يتفوه بكلمة فالأجدر بك أن تترك المشكلة تمر لا أن تجعل منها عصا تكسر بها ظهر الصديق . أنظر الى المسألة بطريقتك فتجد أنك الذي يجب أن تلام ، وفوق هذا أنت الذي يسعى الى الشجار .

قال آلن :

ـ طيب ، طيب .. كفى .

عدنا الى سابق صمتنا . وبلغنا نهاية رحلتنا فتعشينا وانطرحنا لننام من غير أن نتبادل كلمة أخرى .

أوصلنا مرافقنا الى الجانب الآخر من بحيرة (رانوك) في مساء اليوم التالي وأرشدنا الى أفضل طريق نسلكه - بأن نبادر بالوصول الى قمم الجبال والالتفاف حول أطراف وديان (ليون) و(لوكي) و (دوكارت) ومن ثم النزول عن طريق (كپن) وأعالي خليج (فورث) . لم يرتح آلن لذلك الطريق الذي يمر في أرض أعدائه اللدودين ، آل كامبل ، قائلاً إن مجرد الاتجاه شرقاً يجعلنا ندخل أراضي آل (آثول ستيوارت) ، وهم جماعة من أقربائه يتبعون رئيس قبيلة آخر ، ومن هناك نصل الى المكان الذي نقصده بسهولة وأمان .

لكن الدليل ، الذي كان رئيس أدلاء كلاني ، كانت لديه أسباب وجيهة لاختيار الطريق الآخر ، مبيناً لنا عدد القوات الحكومية الموجودة في كل مقاطعة ، وموضحاً لنا (على قدر مافهمت حينذاك) أن أحداً ما لن يفكر بالبحث عنا في أراضي آل كامبل .

رضخ آلن أخيراً ولكن على مضض ، وقال :

- منطقة من أشد مناطق سكوتلانده وحشة . لاشيء هناك ، كما يعرف ، سوى الاحراش والغربان وآل كامبل . لكن أرى أنك رجل بعيد النظر ، فليكن كما تريد !

انطلقنا وفق الطريقة التي رسمها الدليل وقضينا ثلاث ليال تقريباً نتسلق الجبال المخيفة ونعبر الأنهار الجارفة يلفنا الضباب حيناً وتنهمر علينا الأمطار سيولاً حيناً آخر . ولم يسعدنا الحظ برؤية الشمس مرة واحدة .

وكنا ، في النهار نختبىء في الأحراش الرطبة وننام ، ونسير في الليل بلا هوادة ، نرتقي القمم الشاهقة ونجازف بعبور الفجوات الخطرة . وكثيراً ماسرنا على غر هدى وكثيراً ماكنا نعجز من الرؤية من شدة كثافة الضباب فكنا نلبث في مكاننا حتى تخف شدته . ولم

نفكر قط باشعال نار وكان طعامنا عن دقيق الشوفان وبعض قطع اللحم الباردة الذي حملناه معنا من القفص . أما عن الشرب ، فقد كرهنا الماء ، والله ، من فرط كثرته .

كانت فترة عصيبة زاد في قسوتها سوء الاحوال الجوية وصعوبة الطريق . لم أشعر بالدفء أبداً ، فكانت أسناني تصطك والتهبت حنجرتي ، كما حصل لي في الجزيرة المهجورة . وصرت أشعر بوخز مؤلم في خاصرتي لم يفارقني . وعندما كنت أنام المطر ينهمر على والوحل ينز من تحتي ـ كنت أتصور نفسي أمر بأصعب أيام مغامراتي فيتراءى لي برج قصر آل شوز في وميض البرق وجثة الصبي رانسم يحملها البحارة الى عنبر النوم وشوان يموت على أرض الحجرة الدائرية أو كولن كامبل يشهق ممسكاً بصدره ويموت . وكنت أفقيق أحياناً من هذه الاغفاءات الكابوسية المتقطعة وأستوي جالساً في نفس المكان الموحل الذي نمت فيه فآكل قليلاً من خبز الشوفان البارد ، بينما قطرات المطر الغزير تلسع وجهي أو تنحدر على رقبتي وظهري باردة كالثلج والضباب يحيطنا من كل جانب كأنه غرفة مغلقة موحشة . فإذا هب ريح انشق الضباب فجأة لنرى أمامنا مدخل وادٍ مظلم غامض حيث تهدر مياه الروافد الجارفة .

كان هدير الروافد العديدة يأتي من كل صوب . فقد تفجرت كل الينابيع والعيون الجبلية تحت وطأة الأمطار الغزيرة وصار كل وادٍ صغير يصب ماء كأنه نافورة . وكانت الجداول زاخرة سريعة وفاضت مياهها على الجوانب . وكنا نسمع اثناء السير ليلاً ، هدير المياه في أسفل الوديان كالرعد حيناً والصرخة الغاضبة حيناً آخر فتمتلىء نفسنا رهبة .

هناك بدأت أفهم حكاية (حصان الماء(*)) ، شيطان الجداول ذاك الذي يظل يعول ويزأر على الشطئان الى أن تحل اللعنة على

المسافرين المنكودين . اكتشفت أن آلن يصدق الحكاية أو يكاد يصدقها . وكان إذا هدر الماء هديراً عالياً رسم على صدره علامة الصليب بالطريقة الكاثوليكية فكنت انظر اليه مستغرباً ، بل ومندهشاً غاية الاندهاش .

لبثنا متخاصمين طوال تلك الفترة ، ولم نتبادل كلمة . الحقيقة أني ماكنت أقوي على الكلام يضاف الى ذلك أني كنت ذا طبع لايعرف التسامح منذ الولادة . فلا اقبل الإساءة بسهولة ولا انساها بسرعة . وها أنذا أمر بحالة استياء شديدة من زميلي ومن نفسي . وكان آلن طوال يومين طيباً معي بلا ضجر ، صامتاً ومستعداً في كل لحظة للمساعدة ، آملاً طوال الوقت (كما رأيت) ففي زوال غضبي . فيما بقيت كل ذلك الوقت منطوياً على نفسي ، متمسكاً بغضبي ، رافضاً خدماته بخشونة ، ناظراً اليه باستعلاء كأنه شجيرة أو حجارة .

في الليلة الثانية ، أو قل مطلع اليوم الثالث ، وصلنا الى قمة مكشوفة وجدنا منها أننا لانستطيع المضي في الرحلة علنياً فاختبأنا حالاً لنأكل وننام .

داهمنا الفجر قبل أن نصل الى مكان إمين نلوذ به . فقد بدأ ضوء الشمس ينتشر في الجو رغم المطر . واذ نظر آلن الى وجهي بدت عليه علائم القلق . قال لي :

ـ دعني أحمل عنك متاعك .

ربما كانت هي المرة التاسعة التي يعرض علي فيها تلك الخدمة منذ غادرنا رجل استطلاع كلاني عند شاطىء بحيرة رانوك .

قلت بلهجة باردة برودة الثلج :

ـ لا أحتاج . شكراً لك .

فالتهب وجه آلن غضباً وقال :

ـ لن أعرض هذا عليك ثانية . أنا لست رجلاً صبوراً ياديفيد !

فقلت :

ـ أدري أنك لست كذلك .

وكان ذلك قولاً صفيقاً سخيفاً لايصدر الا عن صبي في العاشرة . لم يقل آلن شيئاً في حينه ، لكن رده كان واضحاً من تصرفه . فمنذ تلك اللحظة سامح نفسه على مابدر منه في كوخ كلاني فنصب قبعته على رأسه بكبرياء ثانية وراح يمشي بزهو صافراً بألحان الأناشيد وصار ينظر الي بطرف عينه ويبتسم باستفزاز .

كان علينا ، في الليلة الثالثة ، أن نعبر الطرف الغربي من مقاطعة (بالكيدير) . كانت السماء صافية والبرد شديداً وفي الهواء لسعة الثلج . وكانت الرياح الشمالية قد دفعت السحب بعيداً تاركة وراءها سماء مرصعة بالنجوم .

كانت الجداول زاخرة بالمياه طبعاً وهديرها مايزال يدوي بين التلال . لكني لاحظت أن آلن لم يعد يفكر بحصان الماء ، بل صارت معنوياته عالية . أما أنا فجاء تغير الطقس متأخراً بالنسبة لي . فقد مكثت في الوحل طويلاً حتى أن ثيابي «عافتني» ـ كما يقول الكتاب المقدس ـ كنت في منتهىٰ الارهاق ، شديد المرض ، تسحقني الأوجاع والحمى سحقاً . وتخللت برودة الريح عظامي وصار دويها يطن في أذني . وكنت ، وأنا في هذه الحالة البائسة ، مضطراً إلى تحمل شيء من اضطهاد صاحبي . فتكلم كثيراً بطريقة لاتخلو من السخرية ، ووجد في اسم «تابع الملك» أفضل مايطلقه علي . وكان يناديني محذراً :

ـ أمامك حفرة وسخة فاقفز من فوقها ياتابع الملك ! أدري أنك قفاز بارع !

وظل يكلمني بهذه الطريقة ، ساخراً شامتاً طوال الوقت . أدري أن ذلك ذنبي لا ذنب أحد ، الا أني أضعف من أن أكفر عن الذنب . شعرت بأني لا استطيع جر نفسي خطوة أخرىٰ الى الأمام ، ولن

يمضي وقت طويل حتى أسقط أرضاً وأموت على هذه الجبال الرطبة مثل خروف أو ثعلب ، وتبيض عظامي هناك مثل عظام الحيوانات البرية . كنت واهن التفكير آنذاك ، إلا أني بدأت أحب الفكرة واستمتع بعظمة مثل هذه الميتة ، وحيداً في البيداء والعقبان تحوم في السماء من حولي تنتظر أن ألفظ أنفاسي . حينئذٍ سيشعر آلن بالندم . قلت لنفسي : «سيتذكر ، بعد موتي ، كم هو مدين لي وسوف يتعذب» .

وهكذا مضيت أفكر بهذه الطريقة المريضة السخيفة السوداء ، مضاعفاً غضبي على صديقي بينما المفروض بي أن أركع على ركبتي وأطلب الرحمة من الله . ورحت أقول لنفسي ، كلما شمخ آلن بأنفه كبرياء : «آه ! كبريائي أحسن مما عندك . حين اتمدد وأموت سيصفعك كبريائي في وجهك . آه ، ياله من انتقام ! آه ، كم ستندم على جحودك وقسوتك !» .

كانت حالتي تزداد بمرور الوقت سوء على سوء . وفي إحدىٰ المرات انكفأت على وجهي لأن ساقيَّ لم تقويا على حملي . فوجىء آلن بذلك وتأثر ، الا أني تحاملت واقفاً بمشقة واستأنفت السير بصورة حاولت أن أجعلها طبيعية بما جعل آلن ينسىٰ تلك الحادثة بسرعة . عصفت بي الحمى ونوبات الإرتجاف . ولم أعد أحتمل آلام الوخزة في خاصرتي . أخيراً شعرت بأني لا استطيع أن أتقدم خطوة واحدة . وعندها تملكتني فجأة رغبة جارفة بأن أصفي حسابي مع آلن ، أن أترك غيظي ينفجر وأختم حياتي بصورة مفاجئة .

كان قد ناداني في تلك اللحظة باسم «تابع الملك» ففوقفت في مكاني وقلت بصوت مهتز كأنه وتر كمنجة :

ـ مستر ستيوارت ، أنت أكبر مني سناً ويجب أن تحسن التصرف . أتظن من الحكمة البالغة والذكاء الشديد أن تعيرني بآرائي السياسية ؟

كنت أظن أن اختلاف الرأي بين الناس الأفاضل لايتجاوز حدود اللياقة والأدب . ولو لم أكن أفكر بهذه الطريقة لكنت تباهيت بأكثر مما تتباهى به أنت !

وقف آلن بإزائي ، ناصباً قبعته على رأسه ، واضعاً يديه في جيبي سرواله ، مائلاً برأسه الى جانب ، مبتسماً ابتسامه شريرة كما بدت في ضوء القمر . حين انتهيت من كلامي راح يصفر واحداً من الحان اليعاقبة لأغنية تسخر من هزيمة الجنرال كوپ في معركة بريستوينز :

[إيه ، ياجوني كوپ ، أما زلت واقفاً على قدميك ؟ الى الآن ؟]
ومازالت طبولك تدق حتى الآن ؟!

تذكرت فجأة أن آلن حارب في تلك المعركة الى جانب القوات الملكية ، فسألته ساخراً :

ـ لماذا اخترت هذا اللحن يامستر ستيوارت ؟ ألأنه يذكرك بهزيمتك على الجانبين ؟

تجمد اللحن على شفتي آلن . هتف :

ـ ديڤيد !

مضيت أقول :

ـ انتهى وقت المجاملات . أقصد أن عليك منذ الآن أن تتحدث بأدب عن مليكي وعن اصدقائي الطيبين آل كامبل .

قال آلن :

ـ أنا من آل ستيوارت ...

قلت :

ـ أوه ، أدري أنك تحمل أسم عائلة مالكة . لكن تذكر أني قضيت فترة غير قليلة في الأراضي المرتفعة رأيت خلالها عدداً غير قليل من الناس يحمل هذا الاسم ووجدت أن أفضلهم لا يستحق أكثر من وظيفة خادم .

قال آلن ببطء شديد :

ـ أتدري أنك تهينني ؟

أجبت :

ـ متأسف . لكني لم أفرغ من كلامي بعد . وإذا لم تعجبك موعظتي فأشك بأن تعجبك الموعظة التالية . لقد طاردك الرجال من حزبي الى البراري . فما الشجاعة في أن تتحدى صبياً ؟ كلا آل كامبل وأنصار الملك هزموك . هربت أمامهم كالأرنب فينبغي عليك أن تتحدث عنهم باحترام .

وقف آلن ساكناً تماماً ، تتلاعب الريح بذيل معطفه الكبير . قال أخيراً :

ـ يالللأسف . قلت أشياء لايمكن السكوت عنها .

فقلت :

ـ لم أطلب منك هذا أبداً . أنا مستعد استعدادك أنت .

سأل :

ـ مستعد ؟

فكررت القول :

ـ مستعد . أنا لست مدعياً أو نفاجاً مثل بعض من أعرفهم . هيا ! وسحبت سيفي وأتخذت وقفة التهيؤ للهجوم كما علمني آلن .

فصرخ بي :

ـ ديفيد ! هل جننت ؟ لايمكنني أن أسحب سيفي عليك . إنها جريمة قتل .

فقلت :

ـ هذا كان مرادك حين أهنتني .

فصاح آلن :

ـ إنها الحقيقة .

وقف لحظة يفرك فمه بيده مثل رجل حائر ، ثم قال :

ـ إنها الحقيقة بعينها .

ثم سحب سيفه . ولكنه رماه أرضاً ، قبل أن ألامسه بسيفي ، وهو يقول :

ـ لا ، لا ، لا ، لا .. لا أقدر ، لا أقدر .. هنا تبخر مني كل غضبي ووجدت نفسي مريضاً ونادماً و ذاهلاً ومتعجباً من أمري . في تلك اللحظة وددت لو أعطي كل ما في الدنيا مقابل أن أسحب ماقلت . لكن كلمة تقال لايمكن أن تسترد . ذكرت نفسي بكل طيبة آلن وشجاعته في الماضي ، وكيف ساعدني وخفف عني وشد من أزري في أيامنا العصيبة . ثم تذكرت إهاناتي له فرأيت أني فقدت ذلك الصديق الشجاع الى الأبد .

شعرت ، في نفس الوقت ، بأن الحمى قد تضاعفت علي وبالوخزة في خاصرتي أشد إيلاماً من طعنة سيف . وأعتقد بأنني أغمي علي في مكاني .

إن حالتي هذه هي التي أوحت الي بفكرة . ما من اعتذار يمكن أن يمسح ماقلت ، ومن العبث البحث عن عذر . فلاعذر يكفي لمحو الإهانة . ولكن إذا كان الاعتذار لاينفع فقد تنفع صيحة استغاثة في جعل آلن يسرع لنجدتي . فوضعت كبريائي جانباً وناديت :

ـ آلن ! هل لك أن تساعدني ؟ سأموت في الحال .

أسرع آلن يجلس الى جانبي وينظر الي . قلت :

ـ صدقني .. انتهى أمري . آه ، ساعدني في الوصول الى بيت لأموت هناك براحة .

ماكنت أمثل . فقد كنت أتكلم بضراعة ـ شئت أم أبيت ـ وبصوت بالٍ يفتت الصخر . سألني آلن :

ـ أتستطيع المشي ؟

قلت :

ـ لا أقدر بمفردي . ساقاي ماعادتا تقويان على حملي وأشعر بوخزة

ألم في خاصرتي مثل النار .
لا أستطيع التنفس بسهولة . إذا مت هل ستغفر لي إساءتي ياآلن . لقد وددتك من كل قلبي ، حتى وأنا في أشد حالات غضبي .

فصاح آلن :

ـ هس ، هس ! لاتقل هذا ! ياديفيد الرجل ... أنت تعرف ..

وخنقته العبرة . ثم مضى يقول :

ـ دعني أحيطك بذراعي . هكذا ! والآن استند الي تماماً . الله وحده يدري اين نجد بيتاً ! نحن في (بالهويدر) أيضاً . فلا تبحث عن بيت هنا ولاعن صديق . هل صار المشي أسهل عليك هكذا ياديفي ؟

قلت :

ـ أي . يمكنني المشي بهذه الطريقة .

وضغطت بيدي على ذراعه .

خنقته العبرة ثانية . قال :

ـ ديفي ، أنا لست رجلاً صالحاً أبداً . ماعندي شعور ولاشفقة ، والا لكنت تذكرت أنك مجرد طفل .. والا كنت رأيت أنك تكاد تموت . ديفي ، حاول أن تسامحني .

قلت :

ـ آه يارجل . كفانا حديثاً عن هذا الموضوع ! كلانا مخطىء . تلك هي الحقيقة ! يجب أن نتجاوز ذلك ياآلن الرجل . آه ، الوخزة في خاصرتي شديدة . ألا يوجد بيت هنا ؟

فقال بقوة :

ـ سأعثر لك على بيت ياديفيد . سننزل بمحاذاة الجدول . لابد من وجود بيوت هناك . أليس الأفضل لك أن أحملك على ظهري ياصاحبي المسكين ؟

قلت :

ـ آه ياآلن ، كيف ، وأنا أطول منك قامة بثلاثين سنتمتراً ؟

فصاح آلن بانفعال :

- لست أطول مني بهذه الدرجة . ربما بسنتمترين أو أربعة . لا أقول أني رجل طويل حقاً كما يقال .

ثم أضاف بصوت فيه رنين ضحك :

- الآن ، وأنا أفكر بالموضوع ، يمكنني القول إنك قد تكون محقاً . نعم .. أطول بقدم أو نحوه ، وربما أزيد .

كان شيئاً حلواً وباعثاً على الضحك أن اسمع آلن يبتلع كلماته خشية الدخول في مشاجرة جديدة . وكنت سأضحك لو لم يمنعني الألم الشديد في خاصرتي . لكن لو كنت ضحكت في تلك اللحظة لكنت بكيت أيضاً . صرخت :

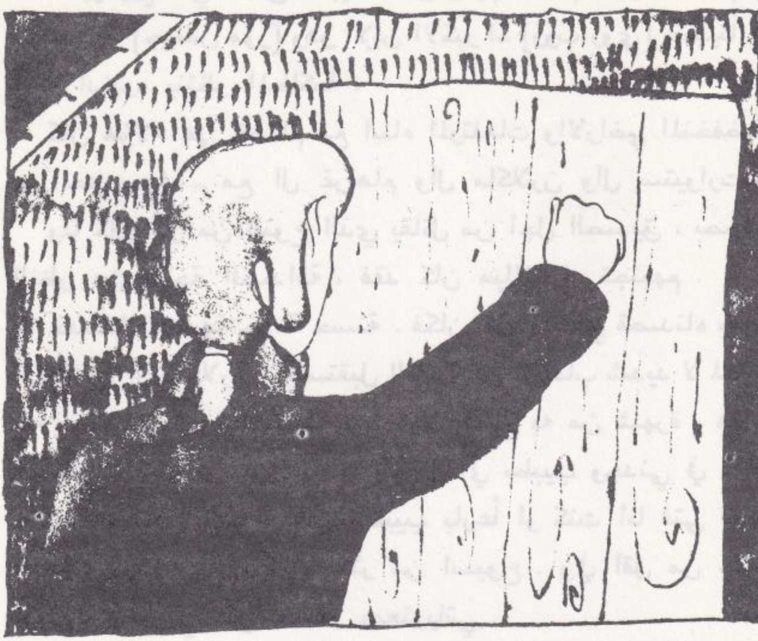
- آلن ! ماالذي يجعلك تعاملني بهذه الرأفة ؟ ماالذي يجعلك تهتم بصاحب ناكر للجميل مثلي ؟

فأجاب آلن :

- حقاً لا أدري . كنت تعجبني لأنك لم تتشاجر قط من قبل . الآن صرت تعجبني أكثر !

(*) منطقة خلجان شمالي سكوتلانده تدعى بهذا الإسم

الفصل الخامس والعشرون
(في بالكيدير)



قرع آلن باب أول بيت وصلناه ، ولم يكن ذلك يدعو الى الطمأنينة في تلال بالكيدير تلك . لم تكن هناك قبيلة كبيرة قوية تحكم المنطقة ، بل يسكنها شتات وبقايا قبائل متصارعة و «شراذم لايرأسها أحد» هربت أمام زحف آل كامبل الى اعالي الجبال وأقامت حول ينابيع فورث و«تايث» . كذلك توجد في المنطقة فروع من قبائل ستيوارت وماكلارن ، لجأت هي الأخرى الى هذا المكان النائي . ذلك لأن آل ماكلارن حاربوا تحت راية زعيم آل ستيوارت .

كما أنهم يرتبطون مع قبائل آپن برابطة الدم . وفي المنطقة أيضاً العديد من آل ماك غريغور الذين طردهم آل كامبل من أرضهم فلجأوا إلى أعالي الجبال . كان هؤلاء من المنبوذين ، وصاروا الآن

موضع ارتياب أشد بسبب من عدم ارتياح أي طرف من أطراف الصراع في عموم سكوتلانده لهم . كان زعيمهم [ماك غريغور أوف ماك غريغور] ففي المنفىٰ .. بينما كان زعيم القسم الموجود منهم في بالكيدير ، [جيمس مور] وهو الإبن الأكبر لـ [روب روي] سجيناً في قلعة أدنبره ينتظر المحاكمة .

كان هؤلاء على خصام مع أبناء المرتفعات والأراضي المنخفضة على حد سواء ـ مع آل غراهام وآل ماكلارن وآل ستيوارت .

ولما كان آلن من النوع الذي يقاتل من أجل الصديق ، بصرف النظر عن درجة الصداقة ، فقد كان ميالاً الى تجنبهم .

خدمتنا الصدفة خدمة حسنة . فكان البيت الذي قصدناه يعود لعائلة من آل ماكلارن . فاستقبل الناس آلن بترحاب شديد لا لمجرد أنه يحمل اسم عائلة مالكة ، بل ولما يتمتع به من شهرة . هناك حملوني الى فراش دون إبطاء وجاؤوا لي بطبيب وجدني في حالة مرضية سيئة . وسواء كان الطبيب بارعاً أو كنت أنا فتىً قوي البنية ، لم ألازم الفراش اكثر من اسبوع . وفي أقل من شهر استعدت قدرتي على السفر ومعنوياتي .

لم يتركني آلن طوال تلك الفترة رغم الحاحي عليه بالرحيل والحق أن إصراره على البقاء كان موضوع احتجاج مستمر من جانب الصديقين أو الثلاثة الذين عرفوا أسرارنا . كان يختبىء ، خلال النهار ، في مغارة بالتلال تحت غابة صغيرة . فإذا هبط الليل وخلا الساحل من رقابة ذوي الستر الحمر ، جاء لزيارتي . لاحاجة بي الى القول كم كنت أفرح لرؤيته . لم تكن السيدة ماكلارن ، سيدة الدار ، ترتاح لهذا النوع من الضيوف . لكن دنكان ديو (إسم سيد العائلة) كان عنده اثنان من مزامير القرب وكان محباً للموسيقىٰ .

فكانت أيام نقاهتي مهرجاناً موسيقياً نحيل فيه الليل الى نهار

تركنا الجنود وشأننا ، رغم أني شاهدت من النافذة وأنا ممدد في فراشي ، فصيلين وبعض الخيالة يسيرون في أسفل الوادي . والأشد إثارة للدهشة هو أن أي حاكم تحقيق لم يأت ولم يسألني أحد عن المكان الذي جئت منه أو المكان الذي أقصده . وكنت في منجاة من الاستجواب كأني في صحراء مقفرة من الناس . ومع ذلك شاع أمر وجودي بين أهالي بالكيدير والمناطق المجاورة ، وزار البيت كثير منهم قاموا (كما هي العادة هناك) بنشر خبر وجودي بين الجيران . وبدأت إعلانات الجوائز تطبع وتوزع . فكان ثمة اعلان معلق بجانب سريري فيه وصف مبالغ به لشخصي ومبلغ الجائزة للقبض علي مكتوب بحروف وأرقام كبيرة . ولم يكن لدىٰ [دنكان ديو] والآخرين ، الذين يعرفون أني جئت بصحبة آلن ، أي شك في من اكون . كما لم يكن صعباً على الآخرين ان يخمنوا ذلك . صحيح أني غيرت ثيابي ، إنما لم أستطع تغيير سني أو ملامحي . كما أن رؤية الفتيان من أبناء الجنوب في تلك المناطق لم يكن في العادة شيئاً مألوفاً . الأهم من هذا ما بدا لي بأن أبناء المنطقة قد لايهتمون بالأمر ولايربطون بيني وبين اعلان الجائزة . أو هذا ماحصل على الأقل . لكن الواقع غير هذا . بين غيرهم من الناس لايبقىٰ السر سراً إذا عرفه اكثر من اثنين أو ثلاثة . أما عندهم فالسر لايخرج منهم حتى لو عرفه أبناء المنطقة كلهم .

شيء واحدمما حدث يستحق الذكر وذلك هو زيارة [روبن أويغ] ، أحد أبناء [روب روي] سيء الصيت ، لي . كان الجميع يطاردونه بتهمة اختطاف إمرأة شابة والزواج منها بالقوة (كما يزعمون) لكنه كان يروح ويغدو في بالكيدير مثل سيد كله اعتداد بالنفس . كان هو الذي أطلق النار على [جيمس ماكلارن] في خلاف بين القبيلتين ظل مستمراً . ومع ذلك دخل بيت أعدائه مثلما يدخل بائع متجول نزلاً عمومياً(*) .

أخبرني دنكان من يكون الرجل وتبادلنا نظرات قلق . تذكروا أن آلن كان على وشك الوصول ، وما كان الإثنان يتبادلان المودة . ثم كان من الصعب أن نرسل كلمة أو إشارة تنبيه حتى لانثير ارتياب رجل مطارد مثل ماك غريغور .

دخل الرجل بمنتهى الأدب والكياسة . لكنه مثل شخص يجد نفسه بين من هم دونه منزلة ، رفع قلنسوته احتراماً للسيدة ماكلارن وعاد يضعها على رأسه حين التفت ليكلم دنكان . وبعد أن عرف الموجودين بمنزلته بهذا التصرف (كما كان يعتقد) اقترب من سريري وانحنى .

قال :

ـ عرفت ، ياسيدي ، أن أسمك بالفور .

قلت :

ـ يدعونني ديفيد بالفور . في خدمتك .

فأجاب :

ـ يتوجب علي أن أعرفك باسمي بالمقابل ياسيدي .

لكنه اسم صار عرضة لبعض التهجم في السنين الأخيرة .

ـ ربما يكفي أن أخبرك بأني شقيق جيمس مور دراموند أوماك غريغور ، الذي لاشك سمعت عنه الكثير .

ـ بالتأكيد ياسيدي ، وعن والدك ماك غريغور ـ كامبل .

وجلست في فراشي وانحنيت . فقد استحسنت فكرة مجاملته طالما هو يتباهى بأن يكون أبوه أحد الخارجين على القانون .

رد إنحناءتي بانحناءة ، وتابع كلامه :

ـ إنما ماكنت أريد أن أقوله ، ياسيدي ، هو الآتي : «في عام ٤٥(*) عبأ أخي جزء من قبائل (غريفارا) وأرسل ست سرايا لتقاتل الى جانب الحق . الطبيب الجراح الذي رافق قبيلتنا وعالج ساق أخي حين انكسرت في معركة (بريستوبان) كان سيداً يحمل نفس إسمكم

بالضبط . كان شقيق [بالفور أوف بيث] فإذا كنتم تمتون بأية صلة قرابة لذلك السيد فإني جئت لأضع نفسي وأهلي تحت تصرفكم .

تذكروا أني لم أكن أعرف عن نسبي وأهلي أكثر مما يعرفه الكلب السائب عن أصله . صحيح أن عمي تحدث مرة عن قرابتنا مع وجهاء القوم ، لكنني لم أتذكر أحداً منهم ، ولم أجد أمامي سوى عار الاعتراف المرير بأني لا أعرف إن كان ذلك الجراح أحد أقاربي .

أعلن روبن عن أسفه لحديثه معي ثم أدار لي ظهره من دون أية تحية ، وسمعته ، وهو يتوجه الى الباب ، يقول لدنكان عني أني لست سوى «صعلوك لا أصل له ولا يعرف حتى أباه» . غضبت لهذه الكلمات وخجلت من جهلي .

لكنني لم أملك الا أن أبتسم لرؤية رجل يطارده القانون (وقد انتهى الى حبل المشنقة فعلاً بعد ثلاث سنوات من ذلك التاريخ تقريباً) يمكن أن يتعامل بهذا اللطف مع أبناء معارفه .

تلاقى مع آلن عند الباب فتراجع الاثنان خطوة وتبادلا النظر مثل كلبين لا يعرف الواحد منهما الآخر . لم يكن أي منهما عملاقاً غير أنهما كانا منتفخين زهواً وكبرياء .

وكان كل منهما يحمل سيفاً دفع بمعطفه الى الوراء ليظهر المقبض وليسهل سحب السيف عند الحاجة . قال روبن :

ـ المستر ستيوارت ، على ما أظن .

فأجابه آلن :

ـ اسم لا أخجل منه ، والله ، يامستر ماك ـ غريغور .

فيقول روبن :

ـ لم أدر أنك في بلدي ياسيدي .

فيرد عليه آلن :

ـ الذي أدريه أني في بلد أصدقائي آل ماكلارن .

فقال الآخر :

ـ هذه ملاحظة سمجة ، قد يرد عليها بكلمة أو إثنتين . لكن أظنني سمعت أنك رجل سيف ؟

فيقول آلن :

ـ لابد أنك سمعت أكثر من هذا بكثير إن لم تكن أطرش يامستر ماك غريغور . أنا لست الرجل الوحيد الذي يستطيع تجريد سيف في آبن .

وعندما كان لقريبي وقائدي آردزهيل حديث مع سيد يحمل اسمك قبل سنين كثيرة ، لم اسمع قط أن ماك غريغور وقف وقفة رجل .

فيسأل روبن :

ـ أتقصد والدي ياسيدي ؟

فقال آلن :

ـ حسناً .. لاعجب في ذلك . فالسيد الذي أقصده بلغ من سوء الذوق أن أضاف اسم كامبل الى إسمه .

فرد عليه روبن :

ـ كان والدي رجلاً عجوزاً . لم يكن النزال متكافئاً .

أنت وأنا غريمان في وضع أفضل ياسيدي .

قال آلن :

ـ هذا مافكرت به .

كنت ماأزال في سريري ودنكان على بعد ذراع من هذين الديكين المتعاركين ليتدخل في اللحظة الأخيرة . وعندما وصل التحدي الى هذه النقطة وجب التدخل والا فات الأوان فاندفع دنكان شاحب الوجه للوقوف بين الرجلين . قال :

ـ أيها السيدين ، كنت أفكر بطريقة مختلفة للغاية إليكما قرب الموسيقى وأنتما سيدان كلاكما مشهور ببراعة العزف بالقرب . النزاع بينكما حول من الأفضل قديم . هذه فرصة طيبة لتسوية هذا

النزاع .

فقال آلن مخاطباً روبن وهو مايزال يراقبه :

ـ عجباً ياسيدي ، عجباً ياسيدى . أظنني سمعت بعض شائعات من هذا القبيل . أتعزف ، كما يقولون ؟

أتعرف شيئاً من النفخ بالقرب ؟

فصرخ روبن :

ـ أستطيع العزف مثل [ماكريمون] !

قال آلن :

ـ قول جريء للغاية . فقال روبن : ـ قلت كلاماً أجرأ من هذا ... وأمام غرماء أفضل.

أسرع دنكان ديو يجلب المزمارين اللذين يؤلفان أثمن ممتلكاته وقطعة لحم خنزير وقنينة من الخمر الذي يطلقون عليه اسم (أتول بروز) ، ويصنع من الويسكي المعتق والعسل المصفىٰ والقشطة الحلوة ويمزج الثلاثة بمقادير متناسبة ويخفق المزيج الى الحد المطلوب . كان الغريمان مايزالان على حافة الاشتباك ، لكنهما جلسا على جانبي الموقد بمنتهى الأدب ألح ماكلارن عليهما بأن يذوقا لحم الخنزير والخمر الذي صنعته زوجته مذكراً الرجلين بأن الزوجة من إقليم أثول نفسه وتتمتع بشهرة واسعة لبراعتها وجودة الخمر الذي تصنعه . لكن روبن أزاح اللحم والخمر جانباً كأنهما يكتمان أنفاسه .

قال آلن :

ـ أود أن أنبهك ياسيدي الى أني لم أتناول طعاماً منذ أكثر من عشر ساعات ، الأمر الذي يتعب نفسي أكثر من أي خمر بروز في سكوتلانده .

فأجاب روبن :

ـ لن استغل هذا يامستر ستيوارت . كل واشرب . سأفعل مثلك .

أكل كل منهما قطعة صغيرة من لحم الخنزير وشرب كأساً من البروز في صحة السيدة ماكلارن . وبعد سلسلة طويلة من المجاملات والرسميات تناول روبن مزمار القرب وعزف لحناً خفيفاً قصيراً بطريقة صاخبة للغاية . قال آلن :

- إي .. أراك تقدر على العزف .

وتناول المزمار فعزف أولاً نفس اللحن بطريقة مماثلة لطريقة روبن ثم انطلق منها الى سلسلة تنويعات راح يخرج منها بين الحين والحين الى مقاطع من أغانٍ معروفة مثل «حب العازفين» و «تغاريد البلابل» .

سرني عزف روبن .وسحرني عزف آلن . قال الغريم :

- ليس سيئاً جداً يامستر ستيوارت . لكن أسلوبك بعزف «تغاريد البلابل» بائس .

فصاح آلن ، وقد احمر وجهه غضباً :

- أنا ! أنت تكذب .

فقال روبن :

- أتعترف إذن بأنك انهزمت في العزف فصرت تريدالتحول الى السيف ؟

فرد عليه آلن :

- قول بارع يامستر ماك غريغور و ... في غضون ذلك (مشدداً نبرة صوته على هذه العبارة) «أسحب كلمة تكذب» وأحتكم الى دنكان .

فقال روبن :

- أنت في غنى عن الاحتكام الى أحد حقاً . فأنت أفضل في الحكم من أي ماكلارن في بالكيدير لأنك ، وحق الله ، بالنسبة لآل ستيوات عازف بارع جداً . ناولني المزامير .

ناولة آلن المزامير فانطلق روبن يقلد ويعدل بعض تنويعات آلن التي ظهر أنه يعرفها تمام المعرفة .

فقال آلن عابساً :

ـ إي ... أنت تعزف .

قال روبن :

ـ والآن ، احكم بنفسك يامسترستيوارت .

وبدأ التنويعات من بدايتها ليأخذها الى اتجاهات جديدة ، عازفاً ببراعة وعذوبة وبخيال غريب ونقلات سريعة بارعة الى ألحان الاغاني ماجعلني أقف مدهوشاً .

أما آلن فقد أظلم وجهه واحتقن وجلس يعض على أصابعه كمن تلقى إهانة قاسية ثم صاح :

ـ كفىٰ ! أنت تستطيع العزف ـ وتعزف بأحسن صورة . وهم بالنهوض . لكن روبن أشار بيده كأنه يطلب منه السكوت وبدأيعزف ببطء لحناً جنائزياً . كان اللحن جميلاً بحد ذاته والعزف جليلاً رائعاً ، والظاهر أن ذلك اللحن خاص بآل ستيوارت من إقليم آپن والمفضل عند آلن . فما كاد يسمع الأنغام الأولىٰ حتى تغيرت ملامحه . ومع تقدم اللحن وازدياد سرعة إيقاعه صار يتململ في مكانه ، وزالت عن وجهه علامات الغضب واستغرق في الاصغاء ولم يعد يفكر بشيء غير الموسيقىٰ . قال ، حين انتهى الرجل من العزف :

ـ روبن أويغ ، أنت عازف عظيم . أنا لاأصلح للعزف في مملكتك . تباًلي ! ففي كيسك من معرفة الموسيقى أكثر مما في رأسي ! ورغم أني مازلت أفكر بأن أذيقك طعم سيفي ، فإنني لا أعتبر هذا عدلاً ! إن قلبي لايطاوعني على مضايقة رجل يستطيع العزف على المزامير مثلك !

وهكذا انتهت الخصومة . وانقضى الليل بين كؤوس البروز وتبادل العزف . وجاء الصباح مشرقاً صافياً . وكان الثلاثة في أحسن حال . ومضى روبن .

تلك كانت آخر مرة أراه فيها . فقد كنت في جامعة لايدن بالجنوب

حين قدم الى المحاكمة وجرى شنقه في (غراس ماركت) . ربما اكون قد أطلت في سرد الحكاية .

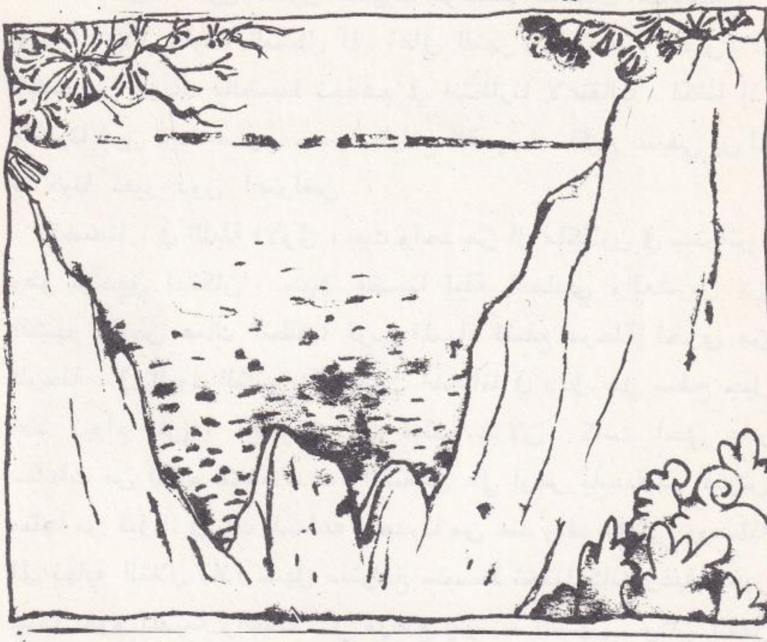
لعل بعض أسباب الإطالة يرجع إلى أنها آخر حادثة مهمة أصادفها في المناطق القصية من المرتفعات . ومن أسبابها الأخرى أني أردت أن أؤرخ لجانب من حياة ذلك الرجل (بعدما انتهى الى الشنق)

(*) حيوان خرافي بهيئة حصان تقول الاساطير السكوتلاندية إنه يرتاد المياه ويروح يصرخ ويعول الى أن يغرق المسافرين بالماء

(*) النزل : هو الخان أو الفندق الريفي يأوي اليه المسافر آنذاك

(*) المقصود هو عام ١٧٤٥ الذي ثار فيه الأمير السكوتلاندية تشاري النحيف على الملك جورج

الفصل السادس والعشرون
(نهاية الرحلة - عبور خليج فورث)



لم ينقض الشهر ، كما ذكرت من قبل ، لكننا كنا قد قطعنا شوطاً كبيراً من شهر آب . كان الجو دافئاً جميلاً وكل الدلائل تدل على أن حصاد الموسم سيأتي مبكراً وغنياً ، حين قيل لي إن بامكاني استئناف رحلتي ، كانت نقودنا قد أوشكت على النفاد ولم يكن أمامنا من حل سوى الاسراع . وذلك لأننا ، إن لم نصل الى المحامي [المستر رانكيللر] في الوقت المناسب أو أنه رفض مساعدتي ، فسنتضور جوعاً . وكان من رأي آلن ، أيضاً ، أن المطاردة قد خفت الى حد كبير وأن الرقابة على شاطىء الخليج وعند جسر ستر لنغ لابد أن تكون ضعيفة هي الأخرى .

- من المبادىء الرئيسة في الأمور العسكرية أن تكون حيث لايتوقعك

العدو .

خليج فورث هو مشكلتنا .

أنت تعرف القول المأثور : «فورث هو لجام الجبليين المتوحشين» . حسناً . إذا حاولنا التسلل الى أعالي النهر وعبرنا من (كيبن) أو (بالفرون) فهناك بالضبط تجدهم في انتظارنا لاعتقالنا . لكننا إذا مضينا دون تردد صوب جسر سترلنغ القديم فسأكسر سيفي إن لم يتركونا نعبر دون اعتراض .

قصدنا ، في الليلة الأولى ، بيت واحد من آل ماكلارن في ستراتر ، وهو صديق لدنكان ، حيث قضينا ليلة الحادي والعشرين من الشهر . ومن هناك انطلقنا قرب المساء لقطع مرحلة أخرى من الرحلة . في اليوم الثاني والعشرين اختبأنا في دغل على سفح جبل عند (يوآم ڤار) ، غير بعيد عن قطيع غزلان . كانت أحلى عشر ساعات من النوم نتمتع بدفء الشمس على أرض يابسة لم أفترش مثلها من قبل . في تلك الساعة انحدرنا من عند رافد (آلان) ووصلنا الى نهاية التلال فاذا سهل سترلنغ منبسط تحتنا كأنه رغيف خبز بينما تقوم المدينة والقلعة على مرتفع يتوسط السهل . وكان القمر يسكب نوره على مضايق ڤورث . قال آلن :

- والآن .. لا أدري إن كان الأمر يهمك ..أنت الآن في بلدك ثانية . لقد عبرنا خط حدود المرتفعات في الساعة الأولى . واذا استطعنا عبور نهركم الخبيث هذا فسوف نرقص ابتهاجاً .

وجدنا في رافد آلان ، قرب مصبه في الخليج ، جزيرة رملية صغيرة تكسوها نباتات وأشواك برية واطئة تكفي ستاراً لنا إذا تمددنا أرضاً . هنا أقمنا مخيمنا غير بعيد عن قلعة سترلنغ ، فكنا نسمع قرع الطبول حيث يستعرض جنود الحامية . وكان جزازو أصواف يعملون طوال النهار في حقل على الجانب الآخر من النهر . فكنا نستطيع سماع ضوضاء العمل وحتى أصوات الرجال

يتحدثون . كان علي أن أنبطح على الأرض والزم الصمت . كان رمل الجزيرة دافئاً والنبتات الصغيرة الخضراء تؤمن الوقاء لرؤوسنا . وكان لدينا طعام وشراب وفير . وأهم من هذا أننا كنا قريبين من النجاة .

حال ماكف الجزازون عن العمل ومالت الشمس للمغيب نزلنا الى الشاطىء وأخذنا طريقنا الى (جسر سترلنغ) سائرين قرب الحقول بمحاذاة سياجاتها .

يقع الجسر تحت المرتفع الذي تقوم عليه القلعة مباشرة . كان جسراً ضيقاً عالياً قديماً تنتصب أبراج عند طرفيه . قد لاتتصورون كم كنت مهتماً بالجسر ، لا لمجرد أهميته التاريخية ... آلن وأنا . حين وصلنا الى هناك لم يكن القمر قد صعد الى صفحة السماء ، وكانت ثمة أنوار قليلة تصدر عن واجهة القلعة ، فيما بدت نوافذ قليلة مضاءة في بيوت المدينة ، كان الهدوء يخيم على كل شيء وبدا كأن الجسر قد خلا من الحراسة .

لم يكن الأمر يتطلب أكثر من التقدم الى الجسر مباشرة والعبور ، لكن الن كان أشد حذراً من ذلك . قال :

ـ يبدو هادئاً جداً . لكن رغم هذا فالافضل أن نمكث هنا وراء تلة ونراقب للتأكد .

فلبثنا في مكاننا مايقرب من ربع ساعة ، نتبادل الحديث همساً حيناً ونلوذ بالصمت ونصغي فلا نسمع سوى صوت ارتطام الأمواج بأرصفة الميناء . أخيراً رأينا امرأة قادمة تتوكأ على عصا . وقفت ، أول الأمر ، قريباً من مكاننا وتنهدت متحسرة على نفسها وعلى الرحلة الطويلة التي قطعتها ثم استأنفت سيرها صعوداً على المنحدر المؤدي الى الجسر . وكانت المرأة من صغر الحجم والليل من شدة الظلام ماجعلها تتوارى عن انظارنا في الحال . ولم نسمع سوى وقع خطواتها وصوت عصاها ونوبات سعالها ثم أخذت هذه الاصوات

بالابتعاد والتلاشي .

همست لآلن :

ـ لابد أنها عبرت الآن .

فقال آلن :

ـ لا . مازلت اسمع وقع أقدامها على الجسر وفجأة صاح صوت :

ـ من هناك ؟

وسمعنا صوت أخمص بندقية قصيرة يسحب على حجارة الجسر .

افترضت عندئذٍ أن الحارس كان نائماً . فلو أننا حاولنا لكنا عبرنا دون أن يرانا أحد . لكن الحارس استيقظ الآن وضاعت الفرصة .

قال آلن :

ـ هذا لاينفع . هذا لايفيدنا أبداً أبداً ياديڤيد .

وانطلق يزحف مرتداً الى الحقول دون أن يضيف كلمة . وعندما أصبح بعيداً عن مدى البصر انتصب واقفاً ومضى الى الدرب المتجه شرقاً . فلم أستطع أستيعاب ماكان يفعل والحقيقة أن خيبة الأمل كانت تمزقني الى حد أني ماعدت ارتاح لأي شيء . فقبل لحظة رأيتني أطرق باب المستر رانكيللر وأطالب بميراثي ، مثل أبطال الحكايات الشعبية وفي اللحظة التالية وجدتني أعود الى ما أنا عليه ، تائهاً مشرداً مطارداً على الجانب غير المطلوب من الخليج . قلت :

ـ حسناً ؟

فقال آلن :

طيب . ماذا كنت تتوقع ؟ ليسوا بالغباء الذي تصورت .

مازال عندنا النهر لنعبره ياديڤي .

سألته :

ـ ولماذا ذهبت شرقاً ؟

فقال :

ـ أوه ، عسى أن أجد شيئاً ! إذا لم نستطع عبور النهر فعلينا أن نرى مايمكن القيام به عند المصب .

قلت :

ـ هنا تجد مناطق ضحلة ، أما في المصب فلا .

فقال آلن :

ـ صحيح ، هنا توجد مخاضات وجسر للعبور ، ولكن ماالفائدة مادامت مراقبة ؟

قلت :

ـ طيب ، النهر يمكن عبوره سباحة .

فرد علي قائلاً :

ـ لمن يملك القابلية . إنما الذي أدريه أننا كلينا لا طاقة لنا على هذه المحاولة . بالنسبة لي ، أنا أسبح مثل الحجارة .

قلت :

ـ أنا لا أقدر على مباراتك بالكلام ياآلن لكني أرى أننا نزيد السيء سوء . اذا كان شاقاً علينا عبور نهر فالمنطق يقول إن عبور بحر أسوأ من ذلك بكثير .

فيقول آلن :

ـ لكن هناك أشياء .. كالزورق مثلاً ... أو أني أتوهم .

فأقول :

ـ نعم .. وأشياء .. كالنقود مثلاً .. لكننا لانملك هذا ولا تلك . وربما لا وجود لمثل هذه الاشياء أساساً .

فقال آلن :

ـ هكذا تفكر ؟

قلت :

ـ نعم ، هكذا .

فيقول :

ـ ديڤيد ، أنت رجل ضعيف الخيال والإيمان . فدعني أشحذ تفكيري ... واذا لم أستطع أن أستجدي زورقاً أو أستعيره أو أسرقه ، فسوف أجد واحداً قلت :

ـ أظنني أفهمك وأكثر من هذا كله ، أنك إذا عبرت الجسر فلن يحكي أحد ، لكن إذا عبرنا المصب فهناك الزورق على الشاطىء المقابل ـ لابد أن أحداً جاء به ... ويروح الناس يتكلمون عنه في كل ارجاء المنطقة .

فصاح آلن :

ـ يارجل ! إذا جئت بزورق فلابد من شخص يعود به !

فلا تثقل علي بالمزيد من سخافاتك (هذا مايجب عليك أن تفعله) ودع آلن يفكر عنك .

وهكذا قضينا الليل نمشي على الجانب الشمالي من الخليج عند أقدام جبال اوتشيل العالية ، متجنبين مناطق (آلوا) و(كلاكمنان) و (كلروس) . وحوالي العاشرة من صباح اليوم التالي وصلنا الى قرية (لايمكلنز) الصغيرة ، وتقوم هذه القرية في مكان قريب من الشاطىء مقابل مدينة كوينزڤيري على الشاطىء الآخر من خليج هوب . كان الدخان يتصاعد من مداخن المدينة والقرية وغيرها من قرى البلاد وحقولها . كانت المحاصيل قد جنيت وانتهى موسم الحصاد وثمة سفينتان راسيتان والزوارق تنتقل بينهما وبين الميناء رائحة غادية . كان منظراً بهيجاً بالنسبة لي ولم أستطع أن أمنع نفسي من متعة النظر الى التلال الخضراء الجميلة والى الناس المستغرقين بالعمل في البر والبحر .

وفوق كل هذا فهناك بيت المستر على الشاطىء الجنوبي ، حيث تنتظرني الثروة دون شك . وها أنا على الشاطىء الشمالي لابس خرقاً بالية ، غير باقٍ معي من نقودي سوى ثلاثة شلنات فضية ،

يرافقني رجل خارج على القانون وهناك جائزة للقبض علي .

قلت :

ـ آه ياآلن ! عندما أفكر بذلك ! هناك ، هناك في انتظاري كل مايصبو إليه القلب . والطيور المحلقة في السماء ...والقوارب المنسابة على وجه الماء .. كل ما يبهج القلب ، لكني هنا وحدي ! آه يارجل .. ما أحزنني !

حين وصلنا الى لايمكلنز قصدنا نزلاً صغيراً ، يبدو عمومياً من اللوحة المعلقة على الباب ، فاشترينا خبزاً وجبناً من بنيّة صغيرة حلوة تعمل هناك ، حملناهما في صرة قاصدين دغلاً قرب ساحل البحر يبعد عنا حوالي ثلث ميل لنجلس ونأكل . بقيت انظر ، ونحن ماضيان ، الى الجانب الآخر من الخليج وأتحسر . واستولت على آلن موجة من المرح لم أعبأ بها . أخيراً توقف عن السير وقال وهو ينقر باصبعه على صرة الخبز والجبن .

ـ هل انتبهت الى الصبية التي اشترينا هذا منها ؟

قلت :

ـ بالتأكيد .. بنية جميلة .

فصاح :

ـ تأملتها ؟ ديفيد ، يارجل ، هذا خبر جيد .. سألته :

ـ عجباً ، لماذا ؟ بماذا يمكن أن يفيدنا ؟

فقال آلن ، ناظراً بطريقة مرحة :

ـ حسناً ، عسىٰ أن تنفعنا في الحصول على قارب .

فقلت :

ـ لو كان الأمر غير هذا لكنت أعجبت بها .

فقال آلن :

ـ هذا كل ماتعرفه .. أترىٰ ؟ أنا لا أريد أن تقع الصبية في حبك . أريدها أن تعطف عليك ياديفيد ...

وهذه مسألة لاتحتاج البنية فيها إلى الإعجاب بجمالك . دعني أنظر إليك (وراح يتفحصني بامعان) وددت لو أنك أشد شحوباً : مع ذلك أنت تفي بالمرام .. بهذه النظرة التي فيها كبرياء وحياء وأنت بهذه الخرق التي يبدو كأنك سرقتها من فزاعة . تعال بنا .. هيا .. نعود الى ذلك النزل طلباً للقارب .

تبعته ضاحكاً . قال :

- ديڤيد بالفور .. أنت سيد لطيف ، بطريقتك .. وهذه مسألة لطيفة تفيد في الخطة التي رسمت بلاشك .

فإذا كان لديك أي خوف على رقبتي (هذا عدا رقبتك أنت) فربما تتفضل بالنظر الى هذا الموضوع بجدية . سأقوم بمشهد تمثيلي لايقل جدية عن حبل المشنقة الذي ينتظرنا نحن الاثنين . فتذكر هذا ، إذا سمحت ، وتصرف على هذا الأساس .

قلت :

- طيب ، طيب . إفعل مايحلو لك .

حين اقتربنا من القرية جعلني أتكىء على ذراعه مثل رجل مريض مرهق . وعندما دفع باب النزل ليدخل كنت مستنداً عليه تماماً أجر قدمي جراً . إندهشت الخادمة (وكان لابد لها أن تندهش) لعودتنا بسرعة ، لكن آلن اندفع يوضح لها الأمر وساعدني على الجلوس وطلب قدحاً من البراندي راح يسقيني جرعات صغيرة منه ، ثم أخرج كسرة خبز وقطعة جبن وصار يطعمني مثل ممرضة أو مربية في حضانة .

وكانت ملامحه ، وهو يقوم بهذا العمل ، تنطق بالاهتمام والعطف والوقار مثل ملامح قاضٍ . فلم يكن غريباً أن تتأثر الصبية بالصورة التي رسمناها ، صورة صبي منهك مريض مسكين ورفيقه الطيب العطوف . فاقتربت منا كثيراً وانحنت تنظر الي ثم سألت أخيراً :

- ماالعيب فيه ؟

فالتفت اليها آلن غاضباً بصورة أدهشتني وصرخ فيها :

ـ عيب ! لقد قطع من مئات الأميال أكثر مما في ذقنه من شعر ونام مراراً في الأدغال الرطبة من غير فراش أو غطاء . تقول هي «عيب» ! عيب .. أعتقد ! عيب حقاً !

وظل يدمدم مع نفسه ، وهو يسقيني ، مثل رجل شديد الاستياء .

قالت الخادم :

ـ هذا كثير على فتى مثله .

فقال آلن دون ان يلتفت اليها :

ـ أكثر من كثير .

فتقول :

ـ الأفضل له أن يسافر راكباً .

فالتفت اليها آلن بنفس النظرة الغاضبة وصاح :

ـ ومن أين آتيه بحصان . أتريدينني أن أسرق واحداً ؟

ظننت أن خشونته ستجعل الفتاة تغضب وتذهب . والحق أنها ظلت ساكتة حيناً من الوقت . لكن صاحبي كان يعرف جيداً مايفعل . صحيح أنه كان بسيطاً وساذجاً في بعض جوانب الحياة ، الا أنه شديد المكر في مثل هذا الأمر .

قالت الفتاة أخيراً :

ـ لاداعي للقول ... أنتم من أبناء الذوات كسرت هذه الملاحظة الساذجة بعضاً من حدة آلن (رغم إرادته كما أعتقد) فقال :

ـ طيب .. أ فرضي أننا من الذوات . هل سمعت يوماً أن أبناء الذوات ينثرون النقود على الناس ؟

فتنهدت ، كما لو كانت هي الأخرى سيدة أرستقراطية ولكن فقيرة ، وقالت :

ـ كلا .. هذا صحيح فعلاً .

كنت طوال الوقت أتلوى خجلاً من الدور الذي أقوم به ، جالساً معقود اللسان بين الخجل والضحك . عند هذه النقطة نفد صبري ، فطلبت من آلن أن يتركني لأن حالي تحسنت .

تحشرج صوتي في حنجرتي لأني ماتعودت على الكذب ، لكن اضطرابي وشعوري بالإحراج ساعد في نجاح اللعبة لأن البنية أرجعت اضطراب صوتي الى المرض و الإعياء . سألت بصوت باكٍ :

- أما عنده أصدقاء ؟

فصاح آلن :

- بل عنده ! لو نستطيع الوصول اليهم ..أصدقاء أغنياء .. فراش ينام فيه .. طعام يأكله .. أطباء يعالجونه .. بينما هو يخوض الآن في الأوحال وينام في الادغال الرطبة مثل شحاذ .

فتسأل الصبية :

- لماذا ؟

فقال آلن :

- ياعزيزتي لا أستطيع الكلام بأمان . لكني سأخبرك بما سأ فعل . سأصفر لك بلحن صغير .

وانحنى كثيراً على الطاولة وصفر لها بطريقة جميلة مدهشة مقطعاً من نشيد (تشارلي حبيبي) .

قالت :

- هسسس !

وألقت نظرة سريعة على الباب . قال آلن :

- هذه هي المسألة

فصاحت الصبية :

- وهو صغير السن جداً !

قال آلن :

- كبير بما يكفي لـ ...

ودق بسبابته على ظهر رقبته كأنه يشير بذلك الى سيف الجلاد .
فصاحت وقد تورد وجهها غضباً :
- هذا منتهى العار !
فقال آلن :
- نعم ، منتهى العار ... الا إذا فعلنا ما هو أ فضل .
عندئذ استدارت الصبية وانطلقت راكضة الى الخارج وتركتنا وحدنا ، آلن في غاية الانشراح لنجاح خططه ، وأنا في غاية الإنزعاج لإعتباري من اليعاقبة ومعاملتي كطفل .
صرخت :
- آلن . لا أقدر على تحمل المزيد .
فقال آلن :
- إذن ، يجب أن تجلس وتلزم الصمت . لأنك إنك قلبت القدر الآن فقد تتمكن من انقاذ نفسك من النار ، لكن آلن بريك سينتهي الى الموت .
كان كلامه صحيحاً الى الحد الذي جعلني لا أملك الا أن أئن متوجعاً . وجاء أنيني ليخدم غاية آلن . فقد بلغ مسامع الصبية فجاءت بسرعة الطير حاملة صحن فطائر بيض وزجاجة بيرة قوية . قالت : «ياللحمل المسكين !» .
ما أن وضعت الفطائر أمامنا حتى لمستني من كتفي لمسة ودية خفيفة ، كأنها تقول لي «لاتحزن» ،ودعتنا الى تناول الطعام مجاناً . ذلك لأن النزل كان ملكها ، أو ملك والدها على الأقل . وكان الوالد مسافراً في ذلك اليوم الى مدينة (بتنكريف) . لم نضيع لحظة واحدة ، فالجبن والخبز ليسا سوى طعام بارد لسد الرمق .
أما الفطائر فكانت لذائذ زكية الرائحة . وإذ رحنا نأكل جلست هي في نفس مكانها الى المنضدة المجاورة تنظر الينا وتفكر ، مشغولة البال ، تجر حبل صدريتها بيدها دون انتباه .

قالت أخيراً مخاطبة آلن :

ـ أراك رجلاً ثرثاراً .

فأجاب آلن :

ـ أي ، لكن لاحظي أني أعرف الناس الذين أتكلم معهم .

قالت :

ـ ماكنت لأخونكم أبداً .. إن كان هذا ماتعنيه .

فقال :

ـ كلا . أنت لست من هذا النوع . إنما سأقول لك مايجب أن تفعليه . يجب أن تساعدينا .

فقالت ، وهي تهز رأسها رافضة :

ـ لا أقدر . لا ، لا أتمكن

قال :

ـ لا . لكن اذا تمكنت ؟

فلم تجب بشيء . قال آلن :

ـ إصغي الي ياصبية . توجد قوارب في مملكة (فايف) لأني رأيت إثنين (على الأقل) عند الشاطىء ، حين جئت من طرف المدينة . اذا استطعنا استعمال أحد القوارب للإنتقال به الى (لوثيان) تحت جنح الظلام ، والاعتماد على رجل طيب شريف كتوم يعود به الى مكانه ويبقي الأمر سراً ، فذلك يعني انقاذ حياة إنسانين حياتي ـ احتمال كبير ـ وحياته ـ بكل تأكيد . إذا لم نحصل على قارب ، فنحن لانملك من متاع الدنيا سوى ثلاثة شلنات . فأين نذهب وماذا نفعل ؟ وماذا يبقى أمامنا سوى أغلال السجن .. صدقيني ... أنا أعرف ! هل نستجدي ياصغيرتي ؟ أيعجبك أن تنامي في فراشك الدافىء وتفكرين بنا ، بينما الريح تعصف بالمداخن والمطر ينهمر على سطوح المنازل ؟ وتستطيعين أن تأكلي بجوار نار الموقد وتفكرين بهذا الولد المريض المسكين يعض على أصابعه ويتلوى من البرد والجوع ؟ عليه أن

يرحل سواء كان سليماً أو مريضاً . ومادام حبل المشنقة يطارده فعليه دائماً أن يمضي قاطعاً الدروب الطويلة تحت رحمة المطر ، وعندما يلفظ أنفاسه الأخيرة على الصخور الجرداء الباردة ، فلن يجد الى جواره من صديق سواي ورحمة الله .

اضطربت روح البنية أمام هذا الرجاء المؤثر وتنازعتها الرغبة في مساعدتنا والخوف من أن تكون تساعد بعض الأشرار .

عندها قررت أنا أن أتقدم وأهدىء مخاوفها بذكر جانب من الحقيقة فسألتها :

- هل سمعت من قبل بالمستر رانكيللر من مدينة فيري ؟

قالت :

- رانكيللر الكاتب ؟ لعلي سمعت به !

قلت :

- حسناً . أنا قاصد الذهاب اليه ، وهكذا ترين أني لست إنساناً شريراً . وأقول لك أكثر من هذا .. حياتي في خطر حقاً بسبب التباس فظيع ، لكن الملك جورج لن يجد في كل سكوتلانده صديقاً أخلص مني .

أشرق وجهها لدى سماعها هذه الكلمات فيما أظلم وجه آلن استياء .

قالت :

- هذا أكثر مما أطلب . المستر رانكيللر رجل جليل .

وطلبت منا أن ننتهي من الطعام ونغادر القرية بأسرع مايمكن ونختبىء ففي الغابة الصغيرة المجاورة لساحل البحر ، قائلة :

- يمكنكما أن تثقابي ، سأجد وسيلة للعبور .

لم ننتظر ، بل صافحناها على العهد وأكلنا قليلاً من الفطائر وانطلقنا خارجين من القرية صوب الغابة . كانت غابة صغيرة فيها بعض أشجار معمرة وقليل من أشجار الدردار الفتية التي ماكانت

جذوعها النحيلة تكفي لإخفائنا عن أعين المارة وبعض شجيرات العليق هنا وهناك . كان علينا أن نتمدد أرضاً مستفيدين من دفء الجو ويغمر قلبينا الآن الأمل بالخلاص ورحنا ندرس ونخطط ما سنقوم به في مابعد .

المشكلة الوحيدة التي صادفتنا في ذلك اليوم هي مجيء عازف مزامير جوال الى نفس الغابة . كلب سكير أحمر الأنف ملتهب العينين يحمل في جيبه زجاجة ويسكي كبيرة . راح يحدثنا حديثاً طويلاً عما أصابه من ظلم على يد مختلف انواع الأشخاص ، بدء من اللورد رئيس محكمة الاستئناف العليا في سكوتلانده ، الذي حرمه من حقه القانوني وانتهاء بقضاة (إنفركايتنغ) الذين أصدروا عليه أحكاماً أشد ظلماً . كان من المستحيل أن لايشك برجلين يختبئان في الغابة طوال النهار ولايقومان بعمل ما . وراح طوال وجوده معنا ينهال علينا بالأسئلة المحرجة . كان رجلاً ثرثاراً لايمسك لسانه . فلما ذهب خفنا كثيراً وصرنا نتعجل الذهاب نحن أيضاً .

انتهى النهار أخيراً وهبط الليل هادئاً صافياً . لمعت الأنوار في البيوت والقرى القريبة ثم راحت تنطفىء واحداً بعد الآخر . كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة ولبثنا طويلاً يعذبنا الخوف والقلق قبل ان نسمع حركة مجاذيف . فرفعنا رأسينا لنرى من يكون القادم واذا بها الصبية نفسها قادمة في القارب . لم تأتمن أحداً على سرنا ، حتى ولاحبيبها إن كان لها حبيب .

فما أن نام والدها حتى تسللت خارجة من النافذة وسرقت قارب أحد الجيران وجاءت لمساعدتنا بمفردها .

تلعثمت وأنا أبحث عن الكلمات المناسبة للتعبير عن شكري . وخجلت هي لسماع الشكر والثناء وتوسلت إلينا أن لانضيع الوقت وأن نكف عن الكلام قائلة (بمنتهى الصواب) إن مفتاح النجاح هي

السرعة والصمت . وهكذا حملتنا بالقارب الى الشاطىء الآخر من الخليج غير بعيد عن كاريدن . هناك تصافحنا مودعين وسرعان ما انطلقت تجذف عائدة الى قرية لايمكلنز قبل أن نقول لها كلمة شكر واحدة على خدمتها .

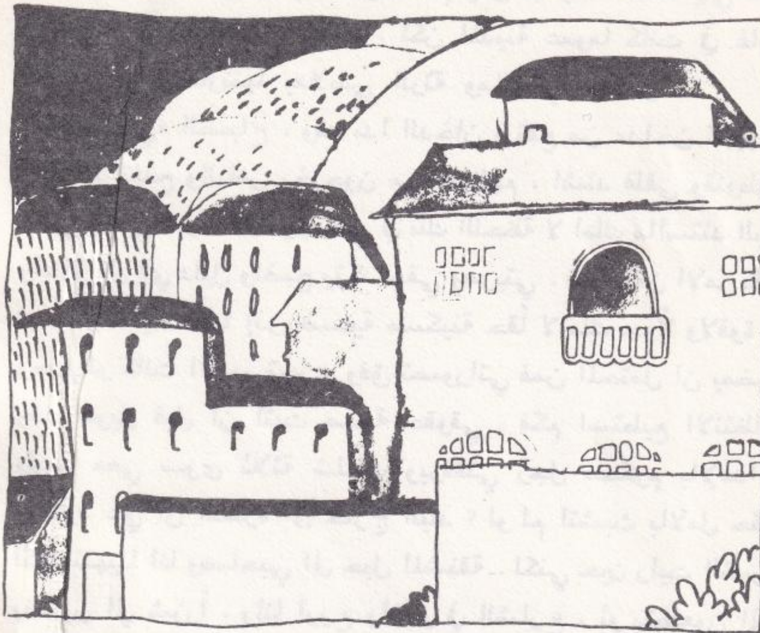
لبثنا صامتين حتى بعد ذهابها . ذلك أننا لم نجد من الكلمات مايكفي لوصف طيبتها . كل الذي حصل أن آلن ظل واقفاً على الشاطىء يهز رأسه فترة طويلة .

قال أخيراً :

ـ إنها بنية رائعة ، ياديفيد ، رائعة ..

وعاد يثني على الفتاة بعد ساعة ، وكنا حينذاك مضطجعين في كهف عند الشاطىء يغلب علينا النعاس . أما أنا فلم أستطع أن أقول شيئاً . كانت البنية من الطيبة والبساطة ماجعل قلبي يتوجع تحت وطأة تأنيب الضمير والخوف ... تأنيب الضمير على استغلالنا لجهلها والخوف من أن تنوشها الأخطار بسببنا .

الفصل السابع والعشرون
(الذهاب الى مستر رانكيللر)



اتفقنا صبيحة اليوم التالي على أن يختبىء آلن حتى ساعة الغروب . وعندما يهبط الظلام يمكث في الحقول المجاورة للطريق المؤدية الى نيوهول ولايتحرك الا بعدما يسمع إشارة صفير مني . اقترحت ، أول الأمر ، أن يكون الصفير لحن أغنية (بيت إيرلي الجميل) ، التي أحبها ، لكنه اعترض بأن الأغنية شائعة للغاية ويمكن أن يرددها أي فلاح هناك بالصدفة ، وعلمني مقطعاً صغيراً من أنشودة جبلية مازال راسخاً في ذاكرتي الى يومنا هذا وسيبقى في ذاكرتي الى يوم الممات . وكلما خطر اللحن ببالي تذكرت آخر أيام قلقي وتشردي وكيف كان آلن جالساً في الكهف يصفر وينقر بأصابعه إيقاعاً وخيوط الفجر الأولى تضيء وجهه .

وصلت الى شارع كوينزفيري الطويل قبل شروق الشمس .

كانت مدينة حسنة البناء ، بيوتها مبنية من الصخر الجيد المنجور . أما مبنىٰ بلدية المدينة فلم يكن جميلاً ، كأنه بني من الحصى . وكذا الشارع الفقير . لكن المدينة عموماً كانت في غاية الأناقة اذا ماقارنتها بملابسي الرثة ومظهري البائس .

مع مجيء الصباح ، وقد بدأ الدخان يرتفع من مداخن البيوت والنوافذ تفتح والناس يخرجون من منازلهم ، اشتد قلقي وقنوطي أكثر من ذي قبل ، فقد وجدتني في تلك اللحظة لا أملك ماأستند اليه وأفتقر الى أي دليل واضح يؤكد حقي وهويتي . فإذا كان الأمر كله نصباً واحتيالاً فأنا إذن ضحية مسكينة حقاً لاتملك حولاً ولاقوة . وحتى لو كانت الأمور تجري وفق تصوراتي فمن المحتمل أن يمضي وقت طويل قبل أن أثبت صحة حقوقي . فكم استطيع الانتظار وليس معي سوى ثلاثة شلنات وبرفقتي رجل محكوم بالإعدام ومطارد علي أن أسفره الى خارج البلد ؟ لو لم أتشبث بالأمل حقاً لكنا انتهينا أنا وصاحبي الى حبل المشنقة . لكني حين رأيت الناس ينظرون الي شزراً ، وأنا أروح وأغدو في الشارع ، أو يتطلعون الي من النوافذ ويتغامزون علي ، بدأ يسيطر على نفسي خوف جديد من أن يكون الوصول الى المحامي والتحدث اليه أمر صعب ، فكيف لي إذن أن أقنعه بحكايتي ؟

خانتني شجاعتي فلم أجرؤ على مخاطبة هؤلاء السكان المحترمين ، بل وشعرت بالخجل من الاقتراب منهم وأنا بهذه الخرق البالية والوساخة . وشعرت إن سألتهم عن بيت رجل مثل المستر رانكيللر لانفجروا ضاحكين سخرية مني . وهكذا لبثت أروح وأجيء في الشارع ومنه الى الميناء مثل كلب ضال ، يعتصر الألم نفسي ويملأ اليأس قلبي . جاء الضحىٰ أخيراً وقاربت الساعة التاسعة . وكنت قد تعبت من التجوال . ووجدتني أقف ، بالصدفة ، أمام بيت فخم

بعيد عن الساحل ، بيت زجاج نوافذه نظيف جميل وأصص الزهور تزين أفاريز النوافذ وجدرانه نظيفة صقيلة وثمة كلب صيد متمدد على العتبة يتمطى متثائباً بارتياح .

رحت أنظر بحسد الى هذا الحيوان الأعجم ، حين انفتح الباب فجأة وخرج منه رجل جليل الهيأة موفور الصحة ذكي الملامح تبدو عليه علائم الطيبة . يلبس باروكة شعر أبيض أنيقة وعوينات . كنت أنا من بؤس الشكل بحيث ما كان أحد ينظر الي . لكن الرجل نظر الي مرة وثانية . وقد تأثر هذا السيد ببؤس مظهري الى حد أنه تقدم مني وسألني : ماشأني : ؟

أخبرته بأني جئت الى كوينزفيري من أجل قضية . وتشجعت وسألته أن يدلني على بيت المستر رانكيللر . فقال :

- عجباً ! هذا البيت الذي خرجت منه الآن هو بيته ، ومن المصادفات الغريبة أن أكون أنا ذلك الرجل !

فقلت :

- إذن ، فأنا جئت التمس شرف مقابلتك ياسيدي .

قال :

- أنا لا أعرف اسمك ولم أرك من قبل .

قلت :

- اسمي ديڤيد بالفور .

فردد الاسم بنبرة استغراب :

- ديڤيد بالفور ؟

وسلط علي نظرة شديدة وهو يسألني :

- ومن أين جئت يامستر ديڤيد بالفور .

قلت :

- جئت من أماكن غريبة كثيرة ياسيدي . لكني أعتقد بأن من الأفضل أن أحكي لك كل شيء في مكان أكثر انفراداً .

فكر برهة وهو ممسك شفته السفلى بأصابعه وراح ينقل نظره بيني وبين منعطف الشارع ، ثم قال :

- أجل ، سيكون أفضل بلاشك .

اصطحبني الى داخل البيت ونادى بصوت عال على شخص لم أستطع رؤيته ، قائلاً إنه سيكون مشغولاً في ذلك الصباح . وقادني الى غرفة صغيرة مغبرة مليئة بالكتب والوثائق . هناك جلس ودعاني الى الجلوس رغم مالاح على وجهه من علائم الإنزعاج لوساخة ثيابي البالية . قال :

- والآن ، إذا كانت عندك قضية فأرجو الاختصار والدخول في الموضوع مباشرة ....(*) أتفهم ذلك ؟ قال ذلك وهو ينظر الي بحدة .

فأجبته باسماً :

- سأفعل مثلما يقول هوراس ياسيدي وانتقل بك الى صميم الموضوع(**)

أومأ برأسه علامة على الارتياح وذلك لأن الجملة التي قالها باللاتينية أراد بها امتحاني . ولكن رغم أني تشجعت قليلاً ، فقد احمر وجهي حين أضفت قائلاً :

- عندي سبب للاعتقاد بأن لي بعض الحقوق في اقطاعية آل شوز .

استخرج سجلاً من أحد الأدراج وفتحه على الطاولة أمامه . قال :

- حسناً ؟

لكنني كنت قد رميت قنبلتي وجلست ساكتاً . قال :

- استمر ، استمر يامستر بالفور . يجب أن تستمر . أين ولدت ؟

أجبت :

- في إيسندين ياسيدي . في الثاني عشر من آذار ، سنة ١٧٣٤ .

الظاهر أنه كان يراجع هذه المعلومات في السجل . أما ماذا يعني ذلك فلم أعرف . سألني :

- أبوك وأمك ؟

قلت :

- والدي الكساندر بالفور ، مدير مدرسة تلك المدينة ووالدتي [غريس بيتارو] . أعتقد أن أهلها من مدينة آنغوس .

سألني المستر رانكيللر :

- أعندك أية وثائق تثبت هويتك ؟

قلت :

- كلا ياسيدي ، لكنها عند المستر كامبل ، القسيس ، ويمكن استنساخها بسرعة . المستر كامبل أيضاً يؤيد أقوالي ولذا لا أعتقد أن عمي يقدر على إنكار قرابتي .

فيقول المحامي :

- تقصد المستر ابنزر بالفور ؟

قلت :

- هو نفسه .

سألني :

- الذي رأيت ؟

فأجبت :

- الذي استقبلني في بيته .

سألني المستر رانكيللر :

- هل حدث أن قابلت رجلاً إسمه هوسيزن ؟

قلت :

- أجل ياسيدي . فهو الرجل الذي دبر ، بالتواطؤ مع عمي ، عملية اختطافي على مرأى من هذه المدينة وحملني الى البحر . وغرقت السفينة وعانيت مئات المشقات وها أنا أقف أمامك اليوم بهذا

الشكل المزري .

قال رانكيللر :

ـ قلت إن السفينة غرقت ... أين ؟

قلت :

ـ عند الطرف الجنوبي من جزيرة مول . والجزيرة التي قذفتني الأمواج اليها تدعى (جزيرة إيريد) فقال باسماً :

ـ آه ! أنت أوسع معرفة مني بالجغرافية . قد أقول لك إن ماذكرته من معلومات حتى الآن يتطابق مع ماعندي من معلومات . لكن تقول إنك اختطفت .. بأي معنى ؟

قلت :

ـ بالمعنى الصريح للكلمة ياسيدي . كنت في طريقي الى بيتك حينما خدعوني بالصعود الى السفينة حيث ضربوني وأغمي علي والقوا بي في قعر السفينة ولم أعرف ماحصل الا بعدما وجدت نفسي في البحر . كان المقرر أن يبيعوني عبداً للعمل في مزارع المستعمرات ، هذا المصير الذي انقذتني منه العناية الآلهية .

قال وهو يراجع السجل :

ـ غرقت السفينة في السابع والعشرين من حزيران ونحن اليوم في الرابع والعشرين من آب . هذه فجوة واسعة تقرب من شهرين ، يامستر بالفور ، سببت متاعب وقلقاً شديداً . وصدقني أني لن أقتنع حتى أرى الأمور على حقيقتها .

قلت :

ـ هذه الفجوة يمكن ملؤها بسهولة حقاً ياسيدي . ولكن قبل أن أروي لك قصتي أود أن أعرف إن كنت أتحدث الى صديق .

فقال المحامي :

ـ مسألة فيها نظر . فأنا لايمكن أن اقتنع قبل أن أسمعك . لايمكن أن اكون صديقاً لك قبل أن تخبرني بكل شيء . كلما وثقت بي أكثر

كان لك أفضل .

وأنت تعرف يامستر بالفور المثل السائر في بلدنا القائل «فاعل الشر يخاف دائماً من الشر» .

قلت :

- عليك أن لاتنسى ياسيدي أني عانيت الكثير من ثقتي بالآخرين ، وجرى اختطافي في سفينة عبيد بتدبير من نفس الرجل الذي يستخدمك (اذا لم اكن مخطئاً) .

كنت أوطد علاقتي مع المستر رانكيللر تدريجياً ومع تطور العلاقة كانت ثقته بي تزداد شيئاً فشيئاً . لكنه أمام هذه الهجمة التي قمت بها وأنا أبتسم ، انطلق يضحك بصوت عالٍ .

وقال :

- لا ، لا ، ليس الأمر بهذه الدرجة من السوء . كنت أعمل له ، أما الآن فلا(*) كنت فعلاً أدير أعمال عمك . لكن تطورات كثيرة حصلت وأنت تتسكع في الغرب . واذا كنت لم تسمع شيئاً فليس لأننا لم نتحدث في هذا الامر . ففي نفس يوم كارثة غرق السفينة جاء المستر كامبل الى مكتبي طالباً أن آتي بك من تحت الأرض . لم اكن أعلم بوجودك ، إنما كنت أعرف والدك . وكنت أتوقع سماع أخبار سيئة ، انطلاقاً من خبرتي . المستر إبنزر اعترف بأنه رآك وصرح لي بأنه أعطاك مبلغاً كبيراً من المال (يبدو الأمر بعيداً عن التصديق) وأنك رحلت الى القارة الأوربية معتزماً أن تكمل دراستك ، وهو شيء ممكن ويستحق التقدير .

وعندما استفسرت منه عن عدم كتابتك الى المستر كامبل بهذا الشأن أقسم بأنك عبرت له عن رغبتك الشديدة بقطع صلاتك بالماضي . وعندما استفسرت منه عن مكان وجودك الآن تعلل بالجهل لكنه يعتقد بأنك في ليدن . هذا مجمل إجاباته . لا أظن أن أحداً صدق أقواله .

ومضى يقول وهو يبتسم :

- وقد كره بعض كلماتي الى حد أنه طردني من البيت كنا حائرين تمام الحيرة آنذاك ، فلم نكن نعرف أي الاحتمالات نرجح . وهنا يأتي الكابتن هوسيزن بحكاية غرقك فينهار كل شيء ولا يبقى سوى الحزن للمستر كامبل والخسارة المالية لي ولطخة سوداء أخرى تلحق بشخصية عمك الملوثة .

ثم قال :

- والآن ، يامستر بالفور ، وبعد أن فهمت كيف جرت الأمور ، لك أن تقدر الى أي مدى يمكنك الوثوق بي .

والحق أنه كان من براعة اللسان مايعجز عنه الوصف وكان يطعم كلامه بالمزيد من العبارات اللاتينية . لكن طريقته بالكلام واشاراته كانت في غاية اللطف بحيث أنه تغلب على شكوكي . يضاف الى ذلك أنه صار يعاملني بثقة كبيرة . وهكذا حصلت على الخطوة الأولى من الاعتراف بشخصيتي .

قلت :

- اذا رويت لك قصتي ، ياسيدي ، فلابد أن أضع حياة صديق لي بين يديك . عدني بأن يبقى هذا سراً .

وليس من ضمانة أفضل في نظري من طيبة وجهك .

فوعدني بكل جدية وقال :

- ولكن هذه تمهيدات مخيفة . اذا وجدت في روايتك أية تجاوزات على القانون ، مهما تكن طفيفة ، فأرجو أن تتذكر أني محامٍ . فلا تخف شيئاً عني .

وعلى هذا رويت له قصتي من البداية . وراح يصغي الي مغمض العينين رافعاً نظاراته فوق جبينه ، حتى ظننته نائماً . لكن بالعكس ! ففقد سمع كل كلمة قلتها (كما عرفت فيما بعد) .

وكان من رهافة السمع وقوة الذاكرة ماجعلني اندهش في أغلب

الأحيان . حتى الكلمات الغيلية الجبلية الغريبة التي سمعها للمرة الأولى ظل يتذكرها ويذكرني بها بعد سنوات من ذلك .

ولكن حين ذكرت اسم [آلن بريك] كاملاً لاح شيء من التوتر في الجو . فقد كان اسم آلن معروفاً بالطبع في جميع أنحاء سكوتلانده ، مقترناً بجريمة آپن والجائزة لمن يأتي برأسه . وما أن نطقت بالاسم حتى تململ المحامي في مكانه وفتح عينيه .

قال :

- لاداعي لذكر اسماء غير ضرورية يامستر بالفور . وخاصة اسماء الناس الجبليين الذين لايحترمون القانون .

قلت :

- ربما كان الأفضل أن لا اذكر الإسم . ولكن مادمت ذكرته فمن المستحسن أن أستمر .

قال المستر رانكيللر :

- لا ، أبداً . أنا سمعي ثقيل . لعلك لاحظت هذا . وأنا غير متأكد من سماعي الاسم بوضوح . سندعو صديقك بـ [المستر تومسن] ، إذا سمحت . وسوف أعامل كل واحد من أبناء الجبال الذين تذكرهم بهذه الطريقة في المستقبل سواء كان حياً أو ميتاً .

استنتجت من كلامه أنه سمع الاسم واضحاً كل الوضوح وأن علي ان أبدأ بالحديث عن جريمة القتل . فإذا كان اختار أن يمثل دور الرجل الذي لم يسمع الاسم فذلك شأنه . لذا ابتسمت وقلت له إنه ليس من الاسماء المألوفة بين سكان المرتفعات . ومن ثم غيرت الموضوع . صرت أشير الى آلن ، أثناء سرد الحكاية ، باسم المستر تومسن . ووجدت متعة في ذلك . وعلى هذا المنوال أصبح جيمس ستيوارت واحداً من أقارب المستر تومسن . وصار كولن كامبل(*) يدعى مستر غلين وعندما وصلت في حكايتي الى [كلاني] قلت انه أحد رؤساء القبائل الجبلية واسمه المستر جيمسن .

كانت أشد التمثيليات الساخرة صراحة حقاً وعجبت لاستمرار المحامي بالمشاركة فيها . لكنها كانت ، على أية حال ، جزء من مودة ذلك العصر . فعندما يتواجه طرفان في الدولة أو شخصان هادئان متواضعان يأخذان بالبحث عن منفذ لتجنب الصدام والاساءة لبعضهما البعض .

قال المحامي بعدما فرغت من حكايتي :

ـ حسناً ، حسناً . هذه ملحمة كبيرة ... أوديسه(*) عظيمة حصلت لك . يجب أن ترويها بلغة لاتينية سليمة ، ياسيدي ، حين تتقدم في دراستك ، أو بالانكليزية ، إن شئت ، رغم أني أفضل اللغة الأفخم .. «لقد تشردت كثيراً .. أية بقعة من الارض هذه(*) !» أية أبرشية(*) في سكوتلانده (بلغة بسيطة) لم تدون في سجلاتها أخبار تنقلاتك ؟ يضاف الى أنك كشفت عن قابلية فريدة على التورط في المشاكل نعم .. لكنك تصرفت بصورة حسنة على وجه العموم . مستر تومسن هذا يبدو لي سيداً يملك بعض المزايا ولو أنه ذو عقلية ميالة الى القتل بعض الشيء .

تمنيت لو أنه (على حسناته) غرق في بحر الشمال . فالرجل ، يامستر ديڤيد ، مزعج الى حد كبير . لكنك محق بلاشك في الإخلاص له لأنه أخلص لك بالتأكيد . الذي حصل ـ يقال ـ أنه كان صاحباً حقيقياً لك ... وكان صاحبه يتقدم ويزيل له آثار قدميه بنفس القدر الكبير من العناية(*) . لأنكما كنتما معاً ، اذا جاز التعبير ، تخشيان حبل المشنقة . طيب ، طيب .. تلك الأيام ولت لحسن الحظ وأظن (في حدود علمي) أن متاعبك أوشكت على الإنتهاء .

وبعد أن وجد مغامراتي لاسوء فيها من الوجهة الاخلاقية نظر الي بمزيد من المرح واللطف فامتلأت نفسي سروراً ورضا . لقد تشردت طويلاً من الخارجين على القانون ونمت في العراء تحت خيمة السماء ، حتى بدالي الجلوس ثانية تحت سقف بيت نظيف والتحدث

بمودة مع سيد أنيق مهندم أشبه بالمعجزة . وحتى وأنا افكر بهذه المسألة وقع نظري على ثيابي القذرة المهلهلة فغلبني الارتباك مرة أخرىٰ . لكن المحامي رأى وفهم مايدور في بالي . فنهض ونادى من عند السلم آمراً اعداد المائدة لاثنين قائلاً ان المستر بالفور سيبقى لتناول العشاء ، وقادني الى غرفة نوم في الطابق العلوي من البيت . هناك جاءني بماء وصابون ومشط وببعض الملابس التي تعود لابنه ومن ثم تركني لآخذ حمامي .

(*) الجملة بالاتينية من كتاب (فن الشعر) لـ [هوراس] .
وتعني «بلا مقدمات واضاعة وقت»

(**) العبارة اللاتينية«In mediaress» من نفس المصدر آنف الذكر . وتعني «الى وسط الاشياء» او «الى صميم الموضوع» .

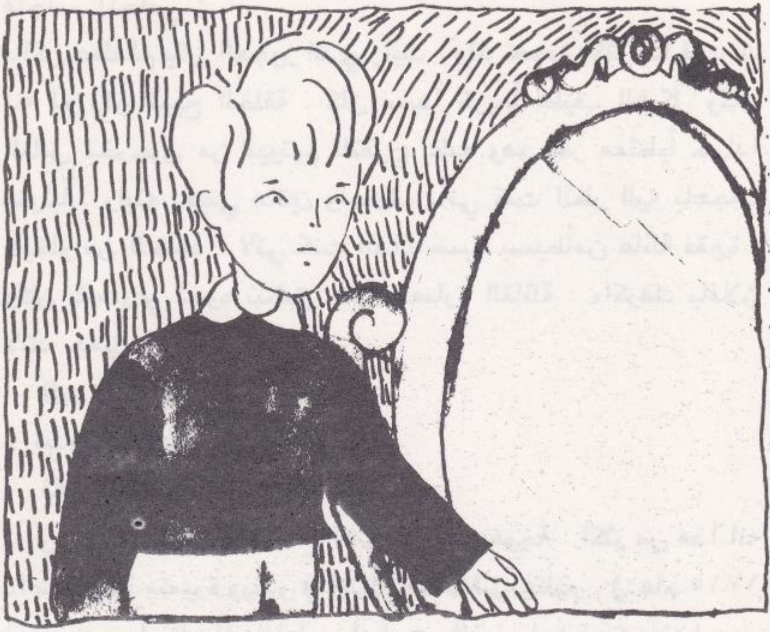
(*) قالها باللاتينية / عن المصدر السابق نفسه .

(*) الثعلب الاحمر الذي مر ذكره في فصل سابق من الرواية .

(**) الأوديسة : نسبة الى اوديسة يوليسيس - ضياعه في البحر لمدة عشرين سنة - كما جاء في ملحمة (الأوذيسة) للشاعر الاغريقي هوميروس .
من ملحمة (الإنيادة) للشاعر الروماني (اللاتيني) فرجيل ، التي يتحدث فيها عن هجرة الطرواديين الى إيطاليا وبناء مدينة روما .

(*) ملحمة (الإنيادة) للشاعر فرجيل . ص١٥٩ من الاصل

الفصل الثامن والعشرون
(المضي في طلب الميراث)



غيرت من مظهري ماأقدر عليه وفرحت عندما نظرت في المرآة فرأيت الشحاذ الذي كنته قد ولى الى غير رجعة ، وعاد ديفيد بالفور الى الحياة ثانية . على أني خجلت من ذلك التغيير أيضاً ، ومن الملابس المستعارة بالدرجة الأولى . لاقاني المستر رانكيللر على السلم بعدما فرغت من ارتداء ملابسي فحياني ودعاني ثانية الى مكتبه . قال ـ اجلس يامستر ديفيد . والآن ، بعد أن استعدت شيئاً من هيئتك السابقة ، دعني أر إن كنت أستطيع العثور لك على أية معلومات . لاشك أنك كنت تتساءل عن خلاف والدك وعمك ؟

هي حكاية غريبة حقاً ، وأنا أخجل من ذكر تفاصيلها . ثم قال وهو شاعر بالخرج فعلاً :

ـ لأن الموضوع يدور حول علاقة حب .

قلت :

ـ أحقاً !لايمكن أن أجد شعوراً كهذا .عند عمي .

فأجاب المحامي :

ـ لكن عمك لم يكن العجوز الذي رأيت . وقد تعجب اكثر إذا قلت لك إنه لم يكن قبيح الخلقة . كان سيداً كريماً لطيف الشكل وكان الناس يخرجون من بيوتهم للتفرج عليه وهو يمر ممتطياً جواداً متوثباً . رأيته بعيني هاتين واعترف بأني كنت انظر اليه باعجاب لايخلو من الحسد . لأني كنت آنذاك صبياً بسيطاًمن عائلة فقيرة . وكان شعوري نحوه تنطبق عليه العبارة القائلة : «اكرهك يافلان لأنك جميل»(*)

قلت :

ـ تبدو الحكاية مثل الحلم .

قال المحامي :

ـ إي ، نعم . هكذا الأمر مع الشباب والشيخوخة . أكثر من هذا أنه ذا شخصية متميزة ويبدو في انتظاره مستقبل عظيم . في عام ١٧١٥ نجده يهرب لينظم الى الثوار . أبوك هو الذي راح يبحث عنه ليجده جريحاًفي خندق . فعاد به وهو يئن من الألم . ففرح البلد كله بعودته . لكن الصبيين وقعا في حب سيدة . كان المستر إبنزر ، المحبوب المدلل ، واثقاً من الفوز بلاشك . وعندما اكتشف أنه كان يخدع نفسه راح يصيح مثل طاووس منفوش . البلد كله عرف بالأمر . سقط مريضاً فيما أحاط افراد عائلته الاغبياء بفراشه وصاروا يبكون . بعدها راح يتنقل على حصانه من خان الى خان ويروي حكايته لكل من هب ودب . أبوك ، يامستر ديفيد ، كان سيداً مهذباً طيباً ، لكنه كان ضعيفاً ، ضعيفاً كالدمية ، يتحمل الأذى بهدوء وصبر . وفي أحد الأيام ـ اسمح لي أن أقول ! تنازل عن

السيدة . هي لم تكن بهذه الحماقة ـ لابد أنك ورثت عنها ماتتمتع به من حسن تقدير ممتاز ـ فرفضت أن تنقل كالبضاعة من واحد الى آخر . ركع الاثنان أمامها . الجانب المثير من الموضوع في تلك اللحظة أنها طردت الاثنين . كان ذلك في شهر آب .. رباه ! في نفس تلك السنة عدت من الكلية .

لابد أن المشهد كان زاخراًبالعجب ، مثيراً للضحك . قلت في نفسي إن الموضوع كله سخيف ، لكني لم أنس أن لوالدي ضلعاً فيه ، فقلت له :

ـ مامن شك أن في الأمر شيئاً من المأساوية ياسيدي ؟ فرد علي المحامي :

ـ لم ؟ لا ياسيدي ، لا أبداً . المأساة تعني أن هناك شيئاً من خلاف يدعو للتأمل .. نوعاً من الصعوبة التي تستحق التفكير بحلها(*) وهذه المسألة كلها لاتعدو أن تكون مشاكسة جحش أفسده البطر ولايحتاج الى أكثر من ربطه ولجمه جيداً . على أية حال لم تكن هذه وجهة نظر والدك . أخيراً بعد سلسلة من التنازلات من جانب والدك يقابلها المزيد من الاستغلال والأنانية العاطفية من قبل عمك ، توصلا الى نوع من الاتفاق عانيت أنت مؤخراً من نتائجة السيئة . فأخذ أحدهما السيدة وأخذ الآخر الاقطاعية . إن الناس يتحدثون كثيراً يامستر ديڤيد ، عن الاحسان والكرم . لكن في حياة زاخرة بالخلافات كهذه أعتقد أن أسعد النتائج تتحقق عندما يستشير المرء محاميه ويأخذ كل مايعطيه القانون . إن الـ(دون كيشوتية) التي مارسها والدك ، وهي غير عادلة بحد ذاتها ، عادت بسلسلة من المظالم البشعة . فعاش أبوك وأمك وماتا فقيرين ونشأت أنت فقيراً ، في الوقت الذي تعرض فلاحو إقطاعية شوز الى انواع الاستغلال والظلم . أضف الى ذلك (إذا كان هناك من يهتم للأمر) :

أية حياة تلك التي عاشها إبنزر !

قلت :

ـ لعل هذا هو أغرب جانب من الحكاية .. تنقلب طبيعة إنسان بهذا الشكل .

قال المستر رانكيللر :

ـ صحيح . ومع ذلك أعتقد بأن التغير كان طبيعياً . لم يستطع الاعتقاد بأنه خرج من الصفقة رابحاً . الذين عرفوا الحكاية أعرضوا عنه (نفروا منه) .

والذين لايعرفون ورأوا أحد الأخوين يختفي والآخر يستولي على الأقطاعية ، صاروا يتصايحون بأن هناك جريمة . وهكذا وجد الرجل نفسه منبوذاً من الجميع . لم يخرج من الصفقة بغير الفلوس . عندهاصار يفكر بالمزيد من الأموال . كان أنانياً في شبابه وهو أناني في شيخوخته . هكذا انتهت الحال بالتصرفات الحلوة والمشاعر الرقيقة السابقة ، كما رأيت بنفسك .

قلت :

ـ حسناً ياسيدي . أين مكاني من هذا كله ؟

فأجاب المحامي :

ـ الاقطاعية ملكك بلاشك . الصفقة التي عقدها والدك لاتعني شيئاً ، فأنت الوريث المنتظر . لكن عمك رجل يحارب بكل الوسائل وأرجح أنه سيطعن في صدق هويتك . إن إقامة دعوى تكلف مالاً كثيراً كما إن إقامة مثل هذه الدعوى بين الأهل تعتبر فضيحة . يضاف الى ذلك أنه إذا ذاع خبر علاقتك بصديقك المستر تومسن فنكون قد جنينا على أنفسنا بذلك . لاشك أن مسألة الاختطاف ستكون ورقة بيدنا أمام المحكمة ، إذا استطعنا إثباتها . لكن قد يصعب علينا ذلك . ونصيحتي لك (على وجه العموم) أن تعقد مع عمك صفقة بسيطة للغاية ، وحتى أن تتركه يقيم في قصر آل شوز ، حيث تمتد جذوره الى اكثر من ربع قرن وترضى في الوقت الحاضر

بدخل معقول .

فقلت له إني مستعد تماماً لأن أتساهل وأكره كثيراً أن أجعل من خلافاتنا العائلية موضوعاً لحديث الناس .

بينما بدأت (مع نفسي) أتبين خطوط الخطة التي نفذناها في مابعد . سألته :

ـ أهم جانب هو أن نواجهه بتهمة الاختطاف ؟

فقال المستر رانكيللر :

ـ بالتأكيد . يفضل أن يتم ذلك خارج المحكمة إن أمكن . لاحظ يامستر ديفيد أننا يمكن ان نعثر على بعض رجال السفينة كوفنانت ممن يؤيدون أقوالك . لكننا لانضمن أن يقولوا مانريده عندما يقفون على منصة الشهادة . لابد أن يذكر أحدهم شيئاً عن صديقك المستر تومسن .

وهذا شيء غير مستحب أبداً (على ضوء ماذكرته لي) .

قلت :

ـ حسناً ياسيدي . عندي طريقة .

وسردت له خطتي . وعندما فرغت قال :

ـ لكن هذا أن أقابل الرجل تومسن ؟

قلت :

ـ أعتقد ، ياسيدي .

فهتف وهو يفرك حاجبه :

ـ عجباً ! عجباً ! لايامستر ديفيد ، أخشى أن لا تجد خطتك عندي قبولاً . لاأقول شيئاً ضد صديقك المسترتومسن . لا أعرف شيئاً ضده .

لو كنت أعرف ـ لاحظ هذا يامستر ديفيد ! ـ لو كنت أعرف عنه شيئاً لكان من واجبي أن ألقي القبض عليه . والآن أسألك : هل من الحكمة أن أقابله ؟ قد تكون هناك تهم تلاحقه .. وقد يكون أخفى

عنك بعض الأمور . ثم قد لايكون اسمه تومسن !

وهتف ، وهو يرمش بعينيه :

- البعض يتخذ مايشاء من الاسماء بنفس السهولة التي يجمع بها الزعرور البري .

فقلت :

- فانظر واحكم أنت بنفسك ياسيدي .

كان واضحاً أن خطتي أعجبته لأنه ظل مستغرقاً في التفكير بها الى أن جاءت الخادم تدعونا الى المائدة بصحبة السيدة رانكيللر . وما كادت تلك السيدة تغادرنا بعد الطعام وتتركنا لشؤوننا مع زجاجة نبيذ ، حتى عاد الرجل الى دراسة اقتراحي . متى وأين أقابل صديقي المستر تومسن ؟ هل أنا واثق من تكتم المستر تومسن . افترض أننا أوقعنا الثعلب العجوز في المصيدة فهل سأرضى بكذا وكذا من شروط الاتفاق ؟

لبث يطرح علي هذه الأسئلة وأمثالها بعناية شديدة ويفكر ملياً وهو يرشف النبيذ بهدوء . وحين أجبت على كل الأسئلة بصورة مرضية كما يبدو ، استغرق ثانية في تفكير عميق جعله ينسى حتى كأس نبيذه الفرنسي الأحمر المعتق .

بعدها أخرج ورقة وقلم رصاص وبدأ يكتب مفكراً بكل كلمة . واخيراً قرع جرساً فجاء كاتبه الى الغرفة . قال له :

- تورانس .. أريد هذه الرسالة أن تنجز الليلة . وبعد الفراغ منها أرجو ان تتفضل فتلبس قبعتك وتأتي معنا ، أنا وهذا السيد ، لأننا قد نحتاج اليك كشاهد .

فصحت حال ماخرج الكاتب :

- ماذا ياسيدي ؟ أنت بنفسك ستغامر ؟

فقال وهو يملأ كأسه :

- يبدو هكذا ! لكن دعنا نترك حديث العمل الآن .

كلما رأيت تورانس تذكرت حادثة صغيرة مضحكة ،يوم اتفقت مع هذا الأبله المسكين على أن يقابلني عند تقاطع طريق أدنبره . مضى كل منا لإنجاز عمله . وعندما بلغت الساعة الرابعة كان تورانس قد بلغ من شدة السكر ماجعله لايعرف سيده ، وكنت أنا قد نسيت عويناتي فصرت شبه أعمى من دونها حتى أني ماعرفت كاتبي .

وضحك من كل قلبه . فقلت إنها مصادفة غريبة وابتسمت من باب الأدب .لكن الذي أثار استغرابي طوال ساعات العصر أنه ظل يعيد سرد الحكاية ويذكر تفاصيل جديدة في كل مرة ويضحك ، فبدأت أخرج عن رزانتي وصرت أشعر بالخجل من حماقة صديقي .

حين قارب أن يحين موعدي مع آلن غادرنا البيت أنا والمستر رانكيللر متأبطين ذراع الواحد الآخر وخلفنا تورانس حاملاً سند الملكية في جيبه وسلة مغطاة بيده.

راح المحامي يوزع تحياته يميناً وشمالاً على طول الطريق . وكان سادة محترمون يستوقفونه باستمرار لاستشارته في أمور تخص أملاكهم أو أعمالهم . ولاحظت أنه رجل ذو شأن كبير في البلد . أخيراً خرجنا من المدينة وبدأنا نسير مع امتداد المرفأ باتجاه (خان هاوز) ورصيف العبارة ، حيث بدأت سلسلة متاعبي . خنقتني العبرات وأنا أتطلع الى المكان . وعادت الى ذاكرتي صور الكثيرين ممن كانوا هناك وطواهم الموت : رانسم ، الذي نجا من العذاب ومن شرور الآخرين .. شوان الذي ولى الى جهنم والمساكين الذين أخذتهم السفينة معها في غطستها الأخيرة . لقد ذهب كل هؤلاء والسفينة معهم ، وبقيت أنا حياً . وخرجت من كل تلك المصاعب والمحن سالماً . كل ماشعرت به في تلك اللحظة هو الحمد لله . ومع ذلك لم استطع النظر الى ذلك المكان دون أن يتملكني الحزن على الآخرين ويملأ الخوف قلبي لذكرى تلك الاخطار .

كنت غارقاً في هذه الأففكار حين دس المستر رانكيللر يده في جيبه وصاح فجأة وراح يضحك وهتف :

ـ رباه ، أليست هذه مغامرة مضحكة ! بعد كل الذي قلته أراني نسيت عويناتي !

عندئذٍ فهمت مغزى حكايته الطريفة ، وعرفت أنه إذا كان قد نسي عويناته في البيت فذلك بقصد . إنه يقدر بهذه الطريقة على الاستفادة من مساعدة آلن دون أن يتعرف عليه . الحق أنها كانت فكرة ذكية بارعة . فلو فرضنا أن الامور سارت باتجاه سيء فإن المستر رانكيللر يستطيع أن يقسم أنه لم يتعرف على شخصية صديقي ولم ير بعينيه أي دليل يضر بمصالحي . لهذا وجدته يقضي وقتاً طويلاً في تأمل الاوراق القانونية أو تبين الطريق ولايستطيع التعرف الا على القليل من السادة الذين استوقفوه ! وكنت مع نفسي على يقين تام بأنه يرى جيداً .

ما أن مررنا من أمام خان هاوز (حيث تعرفت على صاحبه جالساً عند الباب يدخن غليوناً وعجبت لرؤيته كما هو لم تتقدم به السن) حتى غير المستر رانكيللر وضعية المشي فانضم الى تورانس في الخلف وجعلني أتقدم مثل دورية استطلاع .

تسلقت التل وأنا أصفر من حين لآخر لحني الغيلي المتفق عليه .واخيراً فرحت لحني جاءني الجواب ورأيت آلن يبرز من وراء دغل . كان مكتئباً بعض الشيء ، بعد يوم طويل من الاختباء في الأحراش لم يتناول خلاله سوى وجبة طعام بائسة في حانة قرب (دنداس) . لكن ما أن رأى ملابسي حتى أشرق وجهه . حينما أخبرته بما أحرزته قضيتنا من تقدم وبالدور الذي انتظر منه القيام به دبت الحياة فيه وغدا إنساناً جديداً .

قال :

ـ هذه التفاتة منك طيبة جداً . واستطيع القول إنك لن تجد رجلاً

أقدر على القيام بذلك من آلن بريك .

ليس هذا (انتبه لما أقول) بالأمر الذي يقدر أي واحد على القيام به ، بل يتطلب سيداً ذا مقدرة وذكاء . لكن يدور في بالي أن صاحبك المحامي لن يرتاح لرؤيتي طويلاً .

وعلى هذا ناديت ولوحت بيدي للمستر تومسن ، فقال :

ـ أنا مسرور بلقائك يامستر تومسن . لكنني نسيت عويناتي سيخبرك صديقنا ، المستر ديڤيد (وربت على كتفي) كيف أني لا أختلف عن الاعمى كثيراً بدونها فلا تعجب إذا مررت بك غداًولم أعرفك .

قال هذا ظناً منه أن آلن سيسر لذلك ، لكن كبرياء الرجل الجبلي كان أقرب الى الهيجان لأقل من هذا الكلام فقال بلهجة جافة :

ـ عجباً ياسيدي . سأقول إن الأمر لايهمني مادمنا التقيناهنا لغاية معينة ، أن نرى العدالة تأخذ مجراها ويستعيد المستر بالفور حقوقة .. وفيما عدا هذا لا أرى الكثير مما يقربنا من بعضنا البعض . لكنني أقبل عذرك الذي هو أفضل عذر تقدمه .

فقال المستر رانكيللر بمرح :

ـ وهذا اكثر مما أطمح إليه يامستر تومسن . والآن بما أننا ـ أنت وأنا ـ الممثلان الرئيسان في هذا المشروع فإنني أود أن نتوصل الى اتفاق حسن ، أقترح بموجبه أن تأخذ بيدي فأنا لاأستطيع أن أتبين طريقي بوضوح (في ساعة الغروب هذه وافتقاري إلى عويناتي) . أما أنت ، يامستر ديڤيد ، فستجد في تورانس رجلاً حلو الحديث . إنما دعني أذكرك بأنه لاداعي لأن يسمع منك المزيد عن مغامراتك وعن مغامرات ... أحم .. أحم .. المستر تومسن .

وعلى هذا تقدم الاثنان وهما مستغرقان في الحديث ، فيما سرنا أنا وتورانس في أعقابهما .

هبط الظلام تماماً حين وصلنا الى مشارف قصر آل شوز . كانت الساعة قد جاوزت العاشرة والظلام حالكاً والجو رائعاً . وكان ثمة

حفيف ريح خفيفة يأتي من الجنوب الغربي ويطغي على صوت إقترابنا . ولما اقتربنا لم نر بصيص ضوء في أية ناحية من القصر . فيبدو أن عمي قد آوى الى فراشه في تلك الساعة ، وكان هذا يخدم خطتنا على أحسن وجه . توقفنا على بعد خمسين ياردة تقريباً لنتشاور همساً . عندئذٍ تسللنا ـ أنا والمحامي وتورانس ـ الى مكان مستور عند زاوية القصر .

ما أن اتخذنا الموضع المطلوب حتى تقدم آلن بصورة مكشوفة وراح يطرق الباب .

الفصل التاسع والعشرون
(العودة الى مملكتي)



إنهال آلن على الباب طرقاً حيناً من الوقت لم نسمع خلاله سوى صدى طرقاته يتردد في جوانب البيت والجوار . أخيراً استطعت أن اسمع صرير نافذة تفتح بهدوء فعرفت أن عمي قد جاء الى برج مراقبته . فرأى على بصيص الضوء الباهت الذي يحمله آلن واقفاً مثل ظل قاتم ، بينما توارى الشهود الثلاثة في الظلام بعيداً عن أنظاره .

فلم يكن هناك بالتالي مايخيف رجلاً مستقيماً وهو في بيته . وعلى هذا الأساس راح يدرس الزائر بصمت . وحين تكلم تخللت صوته رعشة ارتياب . قال :

ـ ماهذا ؟ هذا ليس وقت زيارة بالنسبة للناس الأفاضل . ولاحديث

لي مع صقور الليل . ماالذي جاء بك ؟ عندي غدارة .

فخطا آلن الى الوراء ورفع رأسه وراح ينظر في الظلمة وقال :

ـ أهذا أنت نفسك يامستر بالفور ؟ حذار من الغدارة فهي لعينة إذا انفجرت عليك !

فقال عمي غاضباً :

ـ ماذا جاء بك الى هنا ؟ ماذا أنت ؟

فقال آلن :

ـ ليس من عادتي أن أنادي معلناً اسمي بهذه البساطة . إنما الذي جاء بي الى هنا موضوع آخر ، يعنيك اكثر مما يعنيني فاذا كنت تريد أن تعرف حقاً فسوف ألحنه وأغنيه لك .

فسأله عمي :

ـ وماهو

فأجاب آلن :

ـ ديڤيد .

فصرخ عمي بصوت يشتعل غضباً :

ـ مامعنى ذلك ؟

قال آلن :

ـ أعطيك بقية الاسم إذن ؟

سادت برهة صمت قال عمي بعدها بارتياب :

ـ أظن من الأفضل أن أدعوك للدخول .

قال آلن :

ـ هذا صحيح ، لكن المسألة هي : هل سأدخل ؟ دعني أخبرك بماذا أفكر . أقول لك إنني أرى أن نتلاقى على عتبة البيت هذه لنبحث الموضوع . هنا ، لا أي مكان آخر . عليك أن تفهم أني صعب المراس مثلك .

وسيد أنحدر من عائلة أفضل من عائلتك .

هذا التغير في اللهجة أقلق إبنزر فلبث يفكر بعض الوقت محاولاً ان يفهمه ، ثم قال وهو يغلق النافذة :

ـ طيب ، طيب .. مايجب يجب .

الا أنه استغرق وقتاً طويلاً في النزول ووقتاً أطول في رفع السلاسل وفتح مزاليج الباب ، وهو يسب ويلعن (اذا جاز القول) ويزداد خوفاً في كل خطوة يخطوها ومع كل قفل يرفعه عن الباب . أخيراً سمعنا صرير الباب .

ويبدو أن عمي خرج متلصصاً (فلما رأى آلن قد تراجع خطوة أو اثنتين) جلس على درجة المدخل الأخيرة والغدارة بيديه جاهزة للإطلاق . قال :

ـ والآن .. لاتنس أني أحمل غدارة . واذا اقتربت خطوة فاعتبر نفسك ميتاً .

فرد عليه آلن :

ـ كلام فى منتهى الذوق بالتأكيد .

فقال عمي :

ـ لا ، إنما هذه ليست زيارة مريحة وأنا مضطر الى اتخاذ الحيطة . والآن وقد فهم أحدنا الآخر ، يمكنك أن تحكي عما تريد .

قال آلن :

ـ عجباً ! وأنت رجل بهذه الدرجة من الفهم لابد أن تكون لاحظت أني سيد من أبناء الجبال ، اسمي لاشأن له بهذه الحكاية ، لكن بلد اصدقائي ليس بعيداً عن جزيرة مول التي ستسمع عنها . يبدو أن سفينة غرقت في تلك الأنحاء . وفي ذلك اليوم كان سيد من أهل بيتي يبحث عن أخشاب حطام على الشاطىء للموقد حين عثر على صبي شبه غريق . حسناً ... حمله وجاء به حيث قام مع بعض الأصدقاء بتقييد الصبي وسجنه في قبو بإحدى القلاع المهجورة ، ليصبح منذ ذلك اليوم عبئاً كبيراً على أصدقائي أولئك .

إن اصدقائي ناس شبه متوحشين ولايقيمون وزناً للقانون ، كما يفعل البعض ممن أعرفهم . ولما عرفوا أن الصبي ابن عائلة معروفة ، وابن أخيك أنت يامستر بالفور ،طلبوا مني أن آتي لإخبارك وبحث الموضوع معك . أقول لك بايجاز إنك لن تراه ثانية الا اذا استطعنا التوصل الى بعض الاتفاق . فأصدقائي ليسوا أغنياء .

تنحنح عمي وقال :

ـ لايهمني كثيراً . لم يكن قط ولداً طيباً . مابي حاجة الى التدخل .

فقال آلن :

ـ إي ، إي .. أعرف ماتسعى اليه : تتظاهر بأنك لاتهتم حتى تقلل مبلغ الفدية !

فقال عمي :

ـ لا . هذه هي الحقيقة . لايهمني الولد بأي شكل ، ولن أدفع أية فدية . لكم أن تفعلوا به ماتشاؤون فلن يهمني ذلك .

قال آلن :

ـ على مهلك ياسيدي . الدم أكثف من الماء ، وحق الشيطان لايمكنك التخلي عن ابن اخيك لمجرد أنك لاتحبه . ولو فعلت هذا وعرف الناس بالأمر لكرهوك ، إذا لم أخطىء .

فرد عليه إبنزر :

ـ أنا غير محبوب من الناس أساساً . ولا أدري كيف سيعلم الآخرون بها . لن يعرفوا عن طريقي على أية حال ، ولا منك أو من اصدقائك . فهذا كلام سخيف ياصاحبي .

فقال آلن :

ـ إذن ديڤيد سيخبرهم بذلك .

فسأله عمي بحدة :

ـ وكيف ذلك ؟

قال آلن :

ـ أوه ، بسيطة أصدقائي سيحتفظون بابن أخيك طالما كان هناك أمل في الحصول على فدية . فإذا يئسوا من ذلك اطلقوا سراحه ليذهب أينما يريد ولتحل عليه اللعنة .

قال عمي :

ـ إي .. لكن هذا لايهمني أيضاً . لايمكن توريطي في هذا الموضوع

قال آلن :

ـ كنت أ فكر بهذا الأمر .

سأله عمي :

ـ ماذا تقصد ؟

أجاب آلن :

ـ ألا ترى ، يامستر بالفور ! من كل ماسمعت لاأجد سوى تفسيرين : أنك تحب ديڤيد وترغب في انقاذه واستعادته ، أو أن لديك أسباباً قوية للتخلص منه وستدفع لنا المال لنحتفظ به سجيناً .

يبدو لي أن التفسير الأول غير صحيح . حسناً ، اذن الثاني . وأنا سعيد لذلك لأنه يعني قرشاً يدخل جيبي وجيوب أصدقائي .

قال عمي :

ـ لم أفهم ماتقصد .

قال آلن :

ـلا ؟ حسناً ... لاحظ ... أنت لاتريد عودة الصبي .. طيب .. ماذا تريد أن نفعل به وكم تدفع ؟

لم يجب عمي ، بل راح يتململ في مكانه قلقاً . صاح آلن :

ـ لاتخف ياسيدي .. أريدك أن تعرف أني سيد محترم .

أنا أحمل اسم ملك ، ولست عابر سبيل ينتظر الصدقات على بابك ، فعليك أن ترد على سؤالي بطريقة مؤدبة والا ، قسماً بقمة غلينكو ، غرست ثلاثة أقدام من الفولاذ في أحشائك .

صاح عمي ، وهو يهب على قدميه خائفاً :

ـ إيه يارجل ، إصبر علي دقيقة ! ماذا دهاك ؟

أنا مجرد رجل بسيط ولست استاذ رقص . وأنا أحاول التصرف بطريقة لطيفة بقدر مايسمح به الأدب .

أما هذا الكلام القاسي فكلام غير لائق . تقول ، أحشائي ! وماذا تقول عن غدارتي ؟

فقال الآخر :

ـ أين أنت من الفولاذ اللامع بيد آلن ! البارود ويدك الراعشة أبطأ من القواقع . سأغرس النصل في عظام صدرك قبل أن يعثر اصبعك الراعش على الزناد .

قال عمي :

ـ إيه يارجل ، من ينكر هذا ؟ قل ماتشاء .. قل مايعجبك . لن أفعل مايغضبك . قل لي ماتريد وسترى كيف يمكن أن نتفق بصورة طيبة .

قال آلن :

ـ والله ياسيدي لا أريد شيئاً سوى صدق التعامل . هما كلمتان : أتريد أن نقتل الصبي أم نحتفظ به ؟

فصرخ إبنزر :

ـ آه ياسادتي ! آه ، ياسادتي . أنا ! ماهذا الكلام !

فكرر آلن :

ـ نقتله أم نحتفظ به ؟

فقال عمي نائحاً :

ـ آه ، احتفظوا به ، احتفظوا به ! لا نريد اراقة دماء من فضلكم !

فيرد عليه آلن :

ـ حسناً . كما تريد . لكن هذا هو الشيء الأصعب .

فصرخ إبنزر :

ـ الأصعب ؟ أتريدون تلطيخ أيديكم بالدماء ؟

فقال آلن :

ـ مهلاً يارجل ! كلتاهما جريمة ، مهما يكن الأمر ! والقتل أسهل وأسرع وأضمن . الاحتفاظ بالولد سيكون عملاً مثيراً للقلق ... سيسبب لنا مشاكل .

فقال عمي :

ـ مع ذلك أفضل الاحتفاظ به . أنا لاعلاقة لي أبداً بأي شيء معيب . ولا أنوي الآن أن أعمل على تسلية رجل جبلي متوحش .

قال آلن بلهجة شديدة :

ـ أنت شديد الخوف

فرد إبنزر ببساطة :

ـ أنا صاحب مبادىء . وعندما يتوجب علي أن أدفع ثمناً أدفعه . ثم لاتنس أن الصبي هو ابن أخي .

قال آلن :

ـ طيب ، طيب . والآن لنتكلم في الثمن ليس سهلاً أن أحدد الثمن . أريد أولاً أن أعرف بعض الأمور الصغيرة . أريد أن أعرف ، مثلاً ، كم دفعت لـ (هوسيزن) عن العملية الأولى ؟

فصرخ عمي وهو يرتد الى الوراء :

ـ هوسيزن ! أية عملية ؟

فأجاب آلن :

ـ اختطاف ديڤيد .

فصرخ عمي :

ـ هذا كذب .. هذا افتراء ! لم يختطف أبداً . هو الولد قال لكم ذلك . أختطف ؟ لم يختطف أبداً !

قال آلن :

ـ هذا ليس ذنبي وليس ذنبك . وليس ذنب هوسيزن أيضاً .. لو كان

رجلاً يمكن الوثوق به .

صرخ إبنزر :

- ماذا تعني ؟ هل أخبركم هوسين ؟

فصاح به آلن :

- عجباً ، أيها الشيخ الخرف ..كيف عرفت إذن ؟ أنا وهوسين شريكان . نقتسم الأرباح . ففكر في المسألة بماذا يفيدك الكذب ؟ وأقول لك بصراحة أنك برهنت على غبائك حين سمحت لرجل مثل هذا البحار بالاشتراك في شؤونك الخاصة . لكن فات الأوان وعليك أن تدفع ثمن خطأك . النقطة التي تهمني الآن هي : كم دفعت له ؟

سأل عمي :

- هل قال لك هو ؟

فقال آلن :

- هذا أمر يخصني .

قال عمي :

- حسناً . لايهمي ماقال ، فهو يكذب . الله يشهد على أني أعطيته عشرين باوناً . سأكون صريحاً مع كل الصراحة : مقابل هذا المبلغ كان عليه أن يأخذ الولد ليبيعه في كارولينا ويحصل على المزيد من المال ، ولكن ليس من جيبي .. لاحظ .

قال المحامي وهو يتقدم :

- أشكرك يامستر تومسن .

ثم قال مخاطباً عمي بمنتهى اللياقة :

- مساء الخير يامستر بالفور.

وقلت أنا :

- مساء الخير ياعمي إبنزر .

وأضاف تورانس :

- إنها ليلة جميلة يامستر بالفور .

لم ينطق عمي بكلمة وجمد الدم في وجهه وظل جالساً حيث هو على الدرجة العليا من عتبة البيت يحدق فينا بنظرة جامدة مثل إنسان تحول الى صخر . فاختطف آلن منه غدارته وأخذه المحامي من ذراعه فرفعه من مكانه ومضى به الى المطبخ فتبعناه كلنا . هناك أجلسه على كرسي بجانب الموقد الذي خمدت فيه النيران الا من جمرات قليلة .

نظرنا اليه جميعاً ، مغتبطين بنجاحنا العظيم . ولكننا شعرنا بنوع من الرثاء للرجل على مالحق به من عار . قال المحامي :

- رويدك يامستر إبنزر . لاتبتئس ، لأني أعدك بأن نجعل شروطنا سهلة . بهذه المناسبة إعطنا مفتاح القبو ليأتينا تورانس بزجاجة من نبيذ والدك المعتق احتفالاً بهذه المناسبة .

ثم التفت الي وقال وهو يتناول يدي :

- مستر ديفيد .. أرجو لك كل الاستمتاع بثروتك الطيبة التي أعتقد بأنك تستحقها .

ثم خاطب آلن بلمسة مرح (أومداعباً) .

- مستر تومسن . تقبل تهانيّ . لقد قمت بدورك ببراعة فائقة . ولكن هناك نقطة واحدة عجز عنها إدراكي هل أفهم منها أن اسمك جيمس ؟ أو تشارلس ؟ أو ربما جورج ؟

فهب آلن واقفاً كمن شعر باعتداء وقال :

- ولم يكون واحداً من الثلاثة ياسيدي ؟

فأجاب رانكيللر :

- لأنك تحدثت عن اسم ملك ياسيدي . وبما أنه ليس بين الملوك من يحمل اسم تومسن ، أو أني ، على الأقل ، لم اسمع عن ملك بهذا الاسم ، فقد خمنت أنك لابد تشير الى الإسم الذي أطلق عليك في التعميد .

كانت تلك أقسى طعنة تلقاها آلن وأعترف بأنه تألم كثيراً .

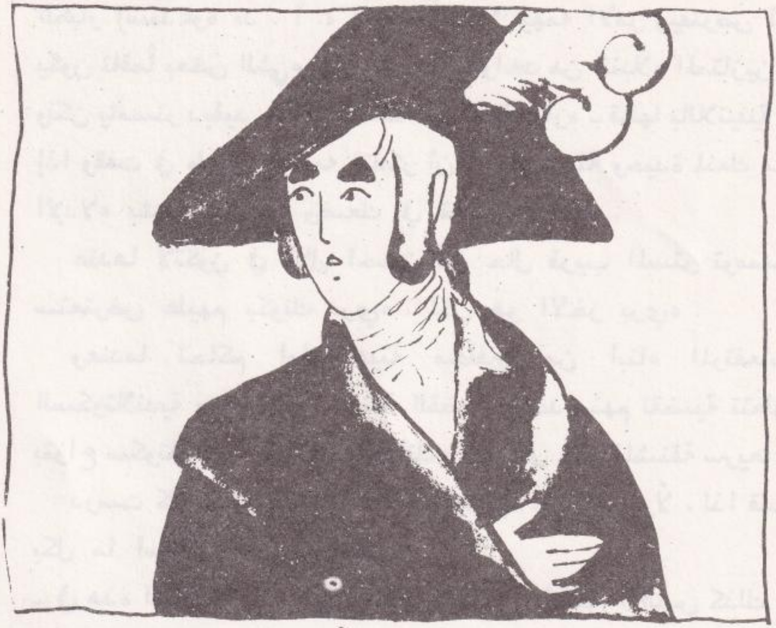
لم يجب بكلمة واحدة ، بل مضى الى الزاوية البعيدة من المطبخ وجلس عابس الوجه حزيناً . وظل على هذه الحال الى أن لحقت به ومددت له يدي مصافحاً وشكرته واصفاً إياه بأنه ينبوع نجاحي فابتسم قليلاً . واخيراً ، وبعد الحاح ، استطعت أن أجره للأنضمام الينا ثانية . أشعلنا ناراً وفتحنا زجاجة النبيذ وأخرجنا من السلة عشاء طيباً جلسنا اليه أنا وآلن وتورانس ، فيما مضى المحامي وعمي الى الغرفة المجاورة للتشاور . لبثا هناك حوالي الساعة توصلا خلالها الى تفاهم جيد ومن ثم وقعنا أنا وعمي بصورة رسمية على الاتفاق الذي اقتنع المحامي بأن عمي سيلتزم به والذي ينص على أن يدفع لي عمي ثلثي واردات اقطاعية شوز السنوية .

وهكذا عاد الشحاذ الى أرضه ، كما في الحكاية الشعبية .

وعندما اضطجعت على خزانات المطبخ لأنام في تلك الليلة ، كنت رجلاً ثرياً يحمل اسماً معروفاً في البلد . وراح آلن وتورانس ورانكيللر يشخرون . أما أنا ، ذلك الإنسان الذي نام في العراء وافترش الأوساخ والحجارة أياماً وليالي ، خاوي المعدة أغلب الاحيان ، يطارد الموت ، فقد أخافني هذا التغير الحسن الذي طرأ على حياتي ، أكثر مما أخافتني كل الشرور الماضية . وبقيت مستيقظاً حتى الفجر انظر الى ظلال النار على السقف وأخطط للمستقبل .

الفصل الأخير

(الوداع!)



وصلت أنا الى شاطىء الأمان أخيراً . إنما بقيت أمامي مشكلة آلن الذي أدين له بفضل كبير . شعرت بعبء ثقيل من جراء الجريمة واتهام [جيمس أوف غلينز] . وفي صباح اليوم التالي صارحت رانكيللر بالأمر . رحنا نتمشى جيئة وذهاباً أمام قصر آل شوز في حوالي الساعة السادسة ، ولم يكن أمامنا سوى غابات وحقول أجدادي التي أصبحت ملكي الآن . كانت عيناي تسبحان بفرح وسعادة في هذه الربوع وقلبي يخفق فخراً ، حتى وأنا أحدث المحامي بهذه الأمور الخطيرة .

لم يشك المحامي بأن علي واجباً تجاه صديقي ، أن أساعده على مغادرة البلاد بأي ثمن . أما بالنسبة لـ [جيمس] فالأمر مختلف .

قال :

- مستر تومسن شيء وقريب المستر تومسن شيء آخر .

ماعندي معلومات كافية عن حقيقة الأمر ، ولكن أحد النبلاء الكبار (سندعوه «د . أ .» إذا أحببت)(*) يهمه الأمر ويفترض أن يكون ناقماً بعض الشيء . إن «د . أ .» واحد من النبلاء الممتازين ، ولكن يامستر ديڤيد .. «أنا أخاف غضبة الجبار» - قالها باللاتينية - إذا وقفت في طريق انتقامه فتذكر أن هناك وسيلة وحيدة لمنعك من الإدلاء بشهادتك هي وضعك في قفص الاتهام .

عندها لاتكون في حال أحسن من حال قريب المستر تومسن ستعترض عليهم بكونك بريء ، لكن هو الآخر بريء .

وعندما تحاكم أمام هيئة محلفين من أبناء المرتفعات السكوتلاندية ويكون على منصة القضاء واحد منهم لقضية تتعلق بنزاع سكوتلاندي ، فمعنى ذلك أنك ذاهب الى حبل المشنقة سريعاً .

درست كل هذه الاعتبارات فلم أجد لها جواباً مقبولاً ، لذا قلت بكل ما أستطيع من بساطة :

- في هذه الحالة ، ياسيدي ، يتوجب علي أن أشنق ، أليس كذلك ؟

فصاح المحامي ؟

- ياولدي العزيز ، اذهب برعاية الله وافعل ماتراه صحيحاً . ماأسوأ فكرة أن يأتي علي يوم أنصحك فيه باختيار الطريق الأسهل ، طريق العار . وهاأنذا اسحب كلامي السابق وأعتذر . إذهب وقم بواجبك ومت ، إن كان ولابد ، سيداً محترماً .

هناك أمور كثيرة في هذه الدنيا أسوأ من الشنق .

قلت باسماً :

- ليست كثيرة ياسيدي .

فصاح :

- بل كثيرة ياسيدي ، نعم .. كثيرة جداً . لوكان عمك انتهى أخيراً

الى حبل المشنقة (مثل قريب) لكان ذلك أفضل عشر مرات .

ثم تحول عائداً الى البيت (بادي الحماس مما دلني على أنه مسرور مني غاية السرور) حيث كتب لي رسالتين . وكان يعلق عليهماوهو يكتب . قال :

- هذه رسالة الى المصرف الذي أتعامل معه : شركة الغزول البريطانية ، ليفتح اعتماداً باسمك . استشر المستر تومسن . هو يعرف الطرق الى الخارج وأنت تقدم المال اللازم . أنا واثق من أنك ستكون مالكاً حريصاً على أموالك ، لكن مع صديق مثل المستر تومسن لابد أن تكون كريماً سخياً . أما بالنسبة لقريبه فلا أحسن من الذهاب الى محاميه واخباره بحكايتك وباستعدادك للادلاء بشهادتك . فاذا اقتنع بها أو لم يقتنع فذلك أمر آخر ، لكنه سيقف بوجه دوق آرجيل . ولكي تصل الى المدعي العام السكوتلاندي(*) مدعوماً بتوصية ، فهذه رسالة الى رجل يحمل اسماً كإسمك ، الاستاذ الفقيه [المستر بالفور أوف بيلريغ] ، رجل أحترمه . ويستحسن أن يقدمك لهؤلاء الناس واحد ممن يحملون اسماً كإسمك ، واللورد بيلريغ رجل يتمتع باحترام كبير في الوسط القضائي وتربطه علاقة طيبة بالمدعي العام [غرانت] . لو كنت بمكانك لما أزعجته بذكر التفاصيل و (تعرف ؟) أعتقد أن لا حاجة الى الاشارة الى المستر تومسن . حاول الاقتداء بشخصية اللورد فهو نموذج طيب . وحين تقابل المدعي العام كن قليل الكلام حذراً وليرعاك الله في كل الاحوال يامستر ، ديڤيد !

بعدها ودعني وانطلق برفقة تورانس نحو العبارة . بينما توجهنا أنا وآلن صوب مدينة أدنبرة . ولبثنا ، ونحن نمضي في طريقنا ، نلتفت لننظر الى بيت آبائي وأجدادي . كان شاخصاً هناك عارياً ضخماً لاينبعث منه دخان ، مثل مكان مهجور . كل الذي كان يبدو هو طرف قلنسوة نوم خلف زجاج احدى النوافذ العلوية يتأرجح مثل

رأس أرنب يخرج من مخبئه . لم اجد من الترحيب حين قدمت الا القليل وأقل منه حسن معاملة حين مكثت في البيت ولكن هناك من ينظر الي وأنا أرحل .

رحنا أنا وآلن نمشي على مهل غير راغبين في السفر ولا في الحديث . كانت فكرة واحدة تشغل بالنا هي نوشك عل الافتراق ، وكانت ، ذكرى الأيام الماضية تملأ نفسنا حزناً .

صحيح أننا تحدثنا عما يجب أن نفعل واتفقنا على أن يختبىء آلن في الريف ويتنقل من مكان الى آخر وأن يأتي مرة في اليوم الى مكان معين حيث يمكن أن أتصل به شخصياً أو بواسطة رسول . وكان علي في الوقت نفسه أن أقصد محامياً من آل ستيوارت من اقليم آپن ، وهو رجل يمكن الوثوق به كلياً ، في العثور على سفينة وتأمين سفر آلن على ظهرها ، لكن ما أن انتهينا من بحث هذه التفاصيل حتى صارت الكلمات تهرب منا . ورغم أني حاولت مداعبة آلن بمناداته باسم المستر تومسن ومازحني هو حول ملابسي الجديدة واملاكي ولقبي ، فقد كان واضحاً أننا كنا أقرب الى البكاء منا الى الضحك .

وصلنا عن طريق جانبي يمر من فوق تلال (كورستورفين) الى مسافة قريبة من مكان يدعى (استرح ـ واشكر ربك) . وعندما رأينا مستنقعات كورستورفين ومن ورائها مدينة أدنبره وقلعتها المنتصبة على مرتفع يتوسطها أدركنا دون أن نتفوه بكلمة واحدة أننا وصلنا الى حيث يفترق دربانا . هنا أعاد علي الخطة والتفاصيل التي اتفقنا عليها : عنوان المحامي والساعة التي يأتي فيها الاشارات التي نتبادلها .ثم أعطيته مامعي من نقود (جنيه أو إثنين من عند رانكيللر) حتى لايعاني من الجوع في هذه الاثناء .

ووقفنا ننظر الى أدنبره بصمت .

قال آلن ، ماداً يده للمصافحة :

ـ حسناً ، مع السلامة .

فقلت :

ـ مع السلامة .

وشددت على يده ، ثم انطلقت هابطاً التل .

لم ينظر أحدنا الى وجه الآخر ، ولم اتطلع مرة واحدة الى الصديق الذي فارقته ، ولكني وأنا في طريقي الى المدينة ، شعرت بالوحدة والضياع الى الحد الذي جعلني أجلس الى جانب غدير وأبكي وأعول مثل أي طفل رضيع .

كان الوقت يقارب الظهر حين وصلت الى حي الكنيسة الغربية (ويست كيرك) وغراس ماركت ، ومنه نزلت الى شوارع العاصمة . غرقت في نوع من الذهول وأنا انظر الى البنايات الشاهقة التي يرتفع بعضها الى عشرة طوابق وخمسة عشر والمداخل المقوسة الواطئة التي كانت تلفظ المارة باستمرار والسلع المعروضة في واجهات الدكاكين والهرج والمرج والحركة الدائبة والروائح الكريهة والملابس الفخمة ومئات التفاصيل الصغيرة التي لاتستحق الذكر ، حتى صارت حشود المارة تتقاذفني جيئة وذهاباً . ومع ذلك كنت طوال الوقت أفكر بآلن في موضع (إسترح واشكر ربك) . وكنت طوال الوقت (قد تتصورون أني كنت مستمتعاً بمشاهدة هذه المناظر) أشعر بما يشبه تأنيب الضمير لخطأما .

وقادتني يد العناية الإلهية وسط حشود الناس الى أبواب مصرف شركة الغزول البريطانية .

[عند هذا يجد المحرر الحالي نفسه ، وبعدما وضع يده على ثروته ، مضطراً الى توديع ديفيد . أما كيف هرب آلن وماذا تم بشأن الجريمة وغير ذلك من التفاصيل فقد نأتي على ذكرها في المستقبل . هذا أمر يتعلق بخيال الجمهور على أية حال . إن المحرر يشعر بعطف شديد على آلن وديفيد ويسره كثيراً أن يقضي أغلب

حياته في مجتمعهما ، إنما سيجد نفسه ، في هذه الحالة ، وحيداً . تجنباً لذلك وحتى لايشكو أحد من سوء استعمال اللغة ، فإنه يبادر الى توكيد أن كل شيء سار مع ديڤيد وآلن بصورة طيبة ، بالمعنى المحدود والإنساني لكلمة «طيبة» . بمعنى أن كل ما حصلا عليه لم يكن مشيناً وأن كل ما أصابهما لم يجعلهما يعانيان الفاقة والعوز(*) .

(*) دوق آرجيل .

(*) يطلق عليه (محامي الملك في سكوتلاندة

(*) تتمة بعنوان «كاتريونا» نشرت في مابعد .

صدر حديثاً

رباعيات بشرى وحنان

سليمان العيسى



دار ثقافة الأطفال

السلسلة الشعرية

٨٢٣
س ٢٩٧ ستيفنسون ، روبرت لويس
المختطف [قصة] ـ تأليف روبرت لويس ستيفنسون
ترجمة: مجيد ياسين ـ بغداد: دار ثقافة الاطفال، ١٩٩٢
ج١ (ص) ؛ ٢٢سم
١ ـ القصص الاسكتلندية
أ ـ مجيد ياسين (مترجم) ب ـ العنوان

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد
[٨٨] لسنة ١٩٩٢

دار ثقافة الاطفال

دار الحرية للطباعة - بغداد

السعر (دينار وربع)